

الطبعة الأولى

عبودية الكون والكائنات

تأليف

مؤيد حمدان و حمدان العلي


عبودية
الكون والكائنات

الطبعة الأولى
٢٠١٩م - ١٤٤٠هـ



الجديد النافع للنشر والتوزيع
Al-Jadeed Al-Nafi3 for Publication & Distribution

حولي - شارع المثنى - مجمع البدري - محل رقم ١٤
Mob. +965 67644426



jadeednafi3



الموزع الرسمي



السعودية: +966541297982 القاهرة: 201022332041 + +201110117447 المغرب: +212522452084

عبودية الكون والكائنات

تأليف

مؤيد حمدان وجدان العلي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد للَّه؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، أما بعد:

فإن قصة تمرُّد الإنسان على خالقه -سبحانه وتعالى- قصةٌ عجيبة حقًّا؛ قصة تبدأ بنطفة ماء حقيرة مهينة، لا قوام لها ولا قيمة، وتنتهي بذلك المخاصِم المجادِل، المعترِض المتكبِّر على خالقه -سبحانه وتعالى-، وليس بين مبدئه من نطفة ساذجة وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارقٌ ولا مهلة! ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

يتمرَّد الإنسانُ - ظاهريًا - في هذه الحياة على خالقه سبحانه، فيشقُّ عصَا الطاعة لمولاه، ويذهب بعيدًا بعيدًا

في هذا الوجود. . . مُعرِضًا متكبرًا أو متكاسلًا متخاذلاً عن أداء ما فرض اللَّه -سبحانه وتعالى- عليه من عبادات وواجبات! ولا يدري المسكين أنه بذلك يقف موقف الشاذ المنبوذ من كل ما في الوجود! بكل ما تحمله كلمتي «الوجود» و«الشذوذ» من معنًى ومبنًى!

فالكون بكل ما فيه من مخلوقات وعجماوات وجمادات ومجرات قد تعبَّد للَّه سبحانه وتعالى، فهو يعبده سبحانه حبًا وتعظيمًا، وتذللاً وتقديسًا، في مشهد غيبي عظيم تحدث عنه القرآن مرارًا وتكرارًا، لن يفقه معناه إلا من استضاء بنور الوحي والإيمان.

من هنا جاءت فكرة هذا الكتاب «عبودية الكون والكائنات» ليكشف لنا حقيقة مفادها أننا إذا عبدنا اللَّه سبحانه وتعالى فقد انسجمنا مع هذا الكون الفسيح بكل مخلوقاته وعوالمه الغيبية والمشاهدة، فلكأننا جميعا نطوف ونركع ونسجد في ذات الوقت لرب كريم سبحانه وتعالى. . . وأما إذا أعرض الإنسان أو الجان عن ربه تبارك وتعالى فحياته ستكون جوفاء، لا طعم لها ولا قيمة، إنه كذرة رمل صغيرة جدا في مجرى السيل العظيم الكبير، وهي تحسب أنها تستطيع أن توقف هذا السيل المتلاطم!

يسير العاصي وراء سراب شهواته كي يدركَ شيئا من أحلامه وآماله بعيدا عن ربه تبارك وتعالى، ظانا أنه بذلك يصنع الأمجاد، ويعرف معنى الحياة، حتى إذا أبْلى جسَده في تتبُّع الشهوات والملذَّات، وأفنَى عمرَه في غَمراتِ الهوى، جاءه الموت، فعاين السَّكَرات، وتقطَّع قلبُه عندها حسَرات لاكتشافه الحقيقة العظمى، فشريط حياته الذي أفناه في البعد عن اللَّه سبحانه وتعالى كان سراب وأي سراب.

إن هذا الكتاب الذي بين يديك «عبودية الكون والكائنات» كتاب في حقيقته كتابُ توحيد وإيمان، وسجود وخضوع، وولاء وبراء، بلغة سهلة قريبة مؤثرة تفقهها القلوبُ قبل العقول، وتعيشها النفوسُ قبل الجسوم والأبدان... ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

إنه كتابُ ذِكْرٍ وتسبيحٍ وتهليل وتقديس للَّه -تعالى-، فالكون بكل ما فيه وعليه -وإن بدا عند الجاهل شذرات أو شتات-، إنما هو في حقيقته كيانٌ واحدٌ متآزر،

مترابط متكاتف، مؤمن بالله.. خاضعٌ لله.. ينطق تسبيحًا وتوحيدا.. ويهتف حمدًا وتمجيدًا ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

إنه كتابُ توقير وتعظيم وتفخيم لله رب العالمين ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ [الأعلى: ٢- ٥]، وهل تملك العينُ والقلبُ والجوارح إلا الإذعانَ والتسليم والخضوع والإجلال لله رب العالمين؟! فهو ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣- ٤].

إنه كتابُ تصالحٍ مع الحياة والكون الرَّحْب الواسع بكلِّ جماداته وحيواناته، ونباتاته وأجرامه، فالكونُ في حقيقته حيٌّ مأنوسٌ، وعالم صديق ودود؛ كونٌ ذو روح تتلقى وتستجيب، وتتجه إلى ربها الجليل في حب وسلام واستسلام: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، فأيُّ راحةٍ، وأيُّ سعةٍ وأيُّ أنسٍ، وأيُّ ثقةٍ يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح؟!

وأخيرًا فهذا الكتاب لا أدعي فيه الإحاطة ولا السبق، وإنما هو نتاج علماء وفضلاء قد سبقوا وكتبوا وما أنا إلا جامع لعبارتهم وأفكارهم، مقر بالتقصير والعجز والتفريط.

وقد أكرمني الشيخ الفاضل/ وجدان العلي حفظه اللَّه بقبوله أن نتشارك هذا العمل، فدفعت إليه هذا الكتاب، يفعل به ما يشاء فاعمل فيه حسه ومشاعره قبل قلمه وبنانه، فأضاف ما جمَّل الكتاب، وعلق عليه بتعليقات حسانًا فهغدا الكتاب بهذه الصورة الجميلة.

فجزاه اللَّه خيرًا على جهده وعلمه.

سائلا المولى عز وجل أن يتقبل منّا هذا العمل، وأن يجعله دالا عليه سبحانه، معينا على طاعته، مؤنسا للعبد في وحشته، فاللَّهم تقبل منّا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد للَّه رب العالمين

مؤيد عبدالفتاح حمدان

الكويت

تقديم

الحمد للَّه على جماله ونوره..

وبعد..

فقد عرفت أخي مؤيد آنسه اللَّه بكرمه قبل أن يكون بيننا حديث؛ إذ ساقني اللَّه تعالى إلى كتابه المبارك «أوراد»، فكان لقلبي معه أحاديث وأسمار في أيام مثقلاتٍ بالهم، فكان ذلك الكتاب صاحبًا وفيًا يمدني بزاد من النور النبوي الذي استبقاه في أذكار وضراعات موصولة باللَّه رب العالمين، فأحببت ذلك الذي أسدى إليَّ معروفا سماويا ولم يكُ بيني وبينه سابق معرفة ولو بحرف..

ومضت قوافل الأيام وشاء اللَّه تعالى أن يصلني بأخي فلنعم الأخ هو.. وكان من ثمرات هذه الصلة أن أرسل إليَّ يومًا كتابا يتحدث عن عبودية الكائنات صرف إليه جهده واجتهد في جمعه وتصنيفه، وأحسن الظن بي فجعل الكتاب بين يديَّ أفعل فيه ما أشاء، فنصبت

هنالك خيمتي، وبثثت في الكتاب روحي، وصببت في آنية حرفه خفقات القلب وما شاء اللّه لي أن أكتب على إيجاز حتى لا يطول الكتاب. . فهاهو بين يديك عليه وسم روحينا وقلبينا وعقلينا. .

والشكر لأخي على تفضله علي وتشريفي بالكتابة في هذا الباب العظيم المبارك. .

واللّه تعالى هو المنان الكريم، وهو الرحمن الرحيم، وهو الذي تفضل، فأسأله سبحانه بأن يمن بالقبول والعافية. . إنه هو الكريم الجميل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وجدان العلي


همسات

١

إشراق!

عندما أستيقظ، وتندى روحي بأنفاس الحياة، وأطالع وجه الصباح الذي يتنفس، فأهمهم في سري: أصبحنا وأصبح المُلْكُ للَّه..!

ذلك المُلْكُ، بما فيه ومن فيه، وما نرى وما لا نرى، وما التمع في الأبصار، وما استتر خلف بيداء الغيب!

كل هذا المدى المشاهد المحجوب، كله للَّه رب العالمين! وما فيه من عوالَم تسبح في فلك العبودية، وتهدِر بنشيد التسبيح يمسح عن الكون أتربةَ ذنوب الثقلين ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾!

هذا المعنى الذي يشرق في النفس كأنفاس الصباح، فتتسع الروح، وتهرول فيها معاني الجلال والجمال!

إنَّ عبودية المنفرد جمال، ولكن مُحاطٌ بالضعف لولا عناية اللّه تعالى، أما التحاق العبد بقافلة السائرين إلى العرش عبوديةً وإخباتًا؛ فإنه يورثه أُنس المطمئن، وسكينةَ الآمن من قوارض الفتن!

ولقد كان من رحمة ربنا أَنْ جعل دعاء الفاتحة بلسان الجمع، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

فكان ذلك موطنًا لانهمار السكينة بأنوارها الآمنة في حقول النفس، واستشعار المؤمن العابد مِن حوله أنفاس الصالحين من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها!

فينهض من غبار الوحشة والكسل، وتسير قدمه ثابتةً لا تلتوي على صراط الصدق الذي وطئته أقدام الهداة المباركين ممن أنعم اللّه عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا!

وضاعف رب العالمين رحمته السابغة فجعل تلك الرفقة المباركة رفقةً كونيةً لا تنتهي! فهذا الكون بما فيه ومن فيه سابح ساجد، يمور بالحياة والنور والعبودية للّه رب العالمين، وله دويٌّ عارمٌ بالتسبيح تسمعه الروح التي شفَّت فأضاء فيها نورُ الوحي وتوهجتْ فيها مشكاة العبودية!

وله طَرْقٌ ناعمٌ على باب القلب يصله دومًا بمعنى الحياة، فهو في معية اليقظة ومعراج السُّمو إلى رب العالمين تبارك اسمه!

والمحب يستأنس بمن يصحبه في سُراه إلى ربه تبارك اسمه! يتحسَّسُ خبره، ويعرف آثاره، ويصل نفسه به!

فكانت هذه الورقات التي بين يديك، تستفتح نوافذ البصيرة، وتريك بعض أصحابك في محراب العبادة الساجد!

فهذا حجر خاشع!

وذلك عصفور يسبح!

وهنالك شمس تهرول إلى صف السجود مع الجبال والشجر!

وهذا نسيم يقيم صلاته على سجادة المدى!

وهذا ظلٌّ يأوي إلى محرابه المخبت!

وإن هذا لحق لا ريب فيه!

فلا تخدش بهاء هذه الحقائق بفأس المجاز، وتحسب أن هذا الحرف من دواة الخيال؛ فإنك بذلك تُبطل معنى الحياة، وتحبس القلب عن التحليق في ملكوت الجمال!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٢

أشهد!

تعالَ معي أيها القارئ الكريم نتعرف على رفقة الخير وقافلة النور، نسبح ونسجد، ونتعبد للّه تبارك اسمه في ميدان الحياة، هاربين من سعير الجحود والغفلة الذي احترقت به المادية المعاصرة، فتنكَّرتْ أوَّلَ ما تنكَّرَتْ للإنسان؛ إذ طمست فيه معنى العبودية، وحجبت عنه نوافذ الإيمان بالغيب، فصار حبيس حسّه، وأسير شهوته، مُقَيَّدًا بالحيرة والقلق، هاربًا من معاينة الجمال، وذوقِ معنى الأنس العلوي الذي متى ذاقه الإنسان تهادت إلى روحه وقلبه وجوارحه أنفاس الحياة، وظفر بـ «المعنى» الذي شرد عن ملايين من الناس، فانقطعوا عن مَدَدِ النور، وصارت حياتهم تابوتًا كبيرا كل ما فيه اختناق، يحمل أصحابه على الهرب من عقولهم بكل سبيل ولو كان سبيلاً كله الهلكة والتلف!

أما العارف بربه فقد اتسعت حدَقَةُ بصيرته مذ لهج بالتوحيد، وعاين آثار أسماء اللَّه سبحانه وصفاته، وطالع أنوارها في نفسه وفيما حوله ومن حوله، وبسطت «أشهد» آثارها في نفسه، فشاهد بقلبه وطالع بروحه وأبصر بعقله تجلياتِ هذه الشهادة في الكون كله، ورآه كتابًا مسطورًا كلُّ حروفه بيانٌ ينطق في الروح بلسانٍ لا عُجمة فيه: أشهد أن لا إله إلا اللَّه!

ولعل هذا هو السر في قول سيدنا الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

ولو تدبرتَ هاهنا تجد أن لفظ الشهادة لا يخرج إلا من مشكاة قلبٍ مطمئن بالإيمان فانتقل به من الغيب إلى الشهود دلالةً على صدق الإيمان واليقين باللَّه تعالى!

وانظر هذا في قوله تبارك اسمه: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وقوله تبارك اسمه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وما أعظم هذا السر!

فإن هذا الدين الإلهي لا يريد منك إيمانًا أصمَّ توصد فيه

عقلك وقلبك، وتصدُّ عن المشاهدات والجَوَلَان في زوايا الكون والنفس ودروب العالم فلا تشهد!

بل يحملك حملاً منذ الحرف الأول «أشهد» إلى الدخول في محراب المشاهدة، والسَّبْحِ بالفكر، والتحليق إلى آفاق التدبر والتأمل، ولا يدعوك إلى المشاهدة كاذبٌ، ولا يحثُّك على التدبر والتأمل مُريبٌ، وحسْبُ كلّ متدبر هذا دلالةً على أن هذا الدين المبارك حقٌّ كله، منذ الكلمة الأولى!

ولكي تنعم الروح بالمشاهدة، وتسبح في فلك العبودية تدبرًا وتفكُّرًا، كان هذا الكتاب الذي بين يديك، فطالِعْه بقلبك، وانظر إليه بعقلك، وقل الحمد للَّه رب العالمين.

* * * * *

قَبْلَ رِحْلَةِ ٱلتَّأَمُّلِ فِي مَلَكُوتِ ٱللَّهِ

«تُخَفِّفُ مِن سَطْوَةِ ٱلكَلَامِ البَشَرِيِّ فَإِنَّهُ تُرَابِيٌّ نَاقِصٌ
وَالتَمِسُ كَمَالَ النَّفسِ فِي جَلَالِ ٱلوَحيِ»

٣

عقل ساجدٌ!

العقل محراب التفكر، وأداة للتحليق في مدى شاسع رحب فسيح، لكنه في النهاية مدى محدود بعلم الإنسان المحدود وقدرته المحدودة وضعفه العتيق!

ومفارقة أي شيء لمساره يخرجه من نسق الجمال إلى عبثية القبح. فالشمس لم تزل جميلةً في مدارها الذي كتبه اللَّه تبارك وتعالى لها، والقمر لم يزل منيرًا يرسل سكينته الضوئية بالتزامه حدَّه الذي حده اللَّه تبارك اسمه له، وكذلك كل شيء في هذا العالم: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

وأعظم جمال للعبد أن يلتزم معنى عبوديته، فإن ذلك مقتضى العقل والحكمة، لاسيما مَن علِمَ فقره وضعفه، وفهمه المحدود، وتفكيره الذي لا يستطيع مجاوزة

السقف الذي حُدِّد له.

تلك هي قاعدة الجمال الكبرى، وللشيطان قباحته التي لا تهدأ، فهو يحب أن يناقض كل سكينةٍ في النفس، وأن يشوه كل جمال في الكون.. فينفذ إلى القلوب ويتسلل إلى النفوس من مواطن الضعف، ويثير وساوسه السوداء في أسئلة تخدش سكينة الإنسان، وتجرح بهاء الطمأنينة في قلبه.

فيخرجه من حد «التفكر والتدبر والتأمل»، وهو أرحب مجالات العقل وأعظمها، وفلكه الجليل الذي لا ينطفئ نوره، ويدخله في متاهات «الضجر والتعليل وسؤالات الاعتراض» الخفي أو الجليّ: لِمَ كان هذا كذلك؟ وكيف كان كذلك؟ وهما سؤالان يصلحان في بعض عالم الشهادة، وليسا يصلحان في كل عالم الغيب!

نعم! بعض ما نراه ونطالعه لا نستطيع الإحاطة به علمًا وليس لنا منه إلا قصاصاتٌ صغرى يدونها عالمٌ، يأتي من بعده من يكملها أو يلغيها..

كل نتاج العلم الإنساني مقيدٌ بـ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وهكذا نحن نعيش في هذا الكوكب الصغير، ونقتات على «القليل» من العلم الذي يتسع شيئًا فشيئًا، عبر

العصور والأزمان، كل ما نحمله في حقيبة الحياة قصاصات صغيرةٌ، تدهشنا بتفاصيلها التي لا تنتهي، ولا يتسع لها عمرنا المحدود وإدراكنا المحدود!

إنَّ من أخص صفات العقل أن يعلم أن هنالك فلكًا يسبح فيه، وأنَّ جماله وحياته في بقائه في ذلك المدار لا يتجاوزه؛ لأن في ذلك جماله وحياته، وعبقريته الفذة المدهشة التي مازته عن سائر المخلوقات.

إنَّ علمَ الإنسانِ وعقلَه مهما بلغا من الرُّقِي والتقدُّم والتطوُّر سيظلان قاصرين عن إدراك حقائق الكون الغيبية، وكيف يدركان حقائق الغيبيات وهما يجهلان حقيقة الروح التي هي أقرب شيء إليهما ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وإذا كان الإنسانُ يجهل خَلْقَ نفسه، فجهلُه بخلق الكون وعوالمه من باب أوْلى وأحرى ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٧- ٥٨]، وتلك عبودية العقل المسلم!

إننا لو حاولنا عبثًا أن نستمِدَّ حقائق الغيب من خلال

عقولنا القاصرة أو عيوننا الباصرة -بمعزل عن منهج السماء - لوقعنا بلا شك في الضلال والإضلال والإثم والبهتان كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولذلك كان من أعظم الفرية على القرآن والسنة أن نُعارض نصوصَهما بمقرَّراتٍ عقلية سابقة، أو اعتقادات موروثة هالكة؛ بحجة أنها تخالف العقل والمنطق!

ولذلك يستحيل عقلا اصطدام الوحي الذي تكلم به الرب سبحانه وبحمده، بالعقل الذي خلقه الرب سبحانه وبحمده!

نعم! قد تعتريه حيرة إدراك لا حيرة شك؛ فإن الرسل صلوات اللّه وسلامه عليهم قد يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته، لا بما يعلم العقل بطلانه ومناقضته للفطرة السوية والنظر السليم، فيخبرون «بمحارات العقول» -أي بما قد يعجز العقل عن إدراكه ومعرفته-لكن لا يخبرون بمحالات العقول!

وهذا فرقان ما بين نور الإسلام وظلمات الحيرة والشك فيما سواه!

فإذا عقِلَ الإنسان هذا فلحقته العناية بادر إلى التسليم، تسليمِ من عرف ربَّه بكماله وجلاله وحكمته ورحمته،

وعرف نفسه بقصوره وضعفه وعجزه، فنطق بقلبه ولسانه: «فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب»!

وهذا تسليم قائم على العلم، لا على التعمية والتعتيم شأن من فقدوا الحجة!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٤

عبادة منسية!

إنَّ من أعظم العبادات التي طواها الهجران والنسيان في عصرنا الحديث هي عبادة التفكر والتأمل في خلق الكون العظيم، ومن نظر في واقع المسلمين اليوم رأى تقصيرًا هائلا في هذا الباب العظيم!

مع أن التفكر والتأمل في بديع صنع اللَّه من أجل العبادات، يدل على ذلك عدة أمور، من ذلك:

أولاً: أن اللَّه تعالى مدح المتفكرين في كتابه بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، وختم اللَّه تعالى ثلاث عشرة آية من كتابة بلفظ ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ أو ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ مما يصور أهمية الأمر،

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وقال عز وجل: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، والبصر هنا بمعنى التفكر، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦] فأمرهم بالقيام من أجل التهيؤ للتفكر، فالتفكر هو الموعظة المقصودة هنا بالرغم من وجود مواعظ أخرى.

وميراث القرآن في الدعوة إلى التفكر وإعمال العقل، ومساحة السؤال فيه والحوار الذي يبعث التأمل، ويوقد سراج النظر: لا يعادله في ذلك كتاب قط!

ومساحة التفكر والتدبر والسؤال في القرآن إحدى إشارات أنه هو الكتاب الحق؛ فليس يُكثر السؤالَ مُرِيبٌ، ولا يدعو إلى التفكر كذاب.

ثانيًا: ذكر اللَّه تعالى في أكثر من (٢٥٠) آية من القرآن الكريم صورا مختلفة للكون الذي يحيط بنا في سماواته وأرضه، وفي جباله وبحاره وأنهاره، وفي مخلوقاته من الجن والإنس والطير والدواب، وفي هوائه وسحابه وأمطاره، وفي أحداثه وتغيراته، وفي حاضره وماضيه، وفي مشاعره وتسبيحاته، أترى هذا الكم الكبير من الآيات - التي تفوق الآيات المتحدثة عن الأحكام الفقهية - ذُكِرَ عرضًا أو للقراءة المجردة فحسب؟!

ثالثًا: أن اللَّه تعالى ذم معطلي العقول والأفكار في آياتٍ كثيرةٍ من كتابه العزيز؛ فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: ٢١]، وقال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣ - ٢٥]، فجعل تعطيل العقل - التقليد الأعمى - سببا للتكذيب والكفر ثم سوء العاقبة.

رابعًا: أن النبي ﷺ كان يتفكر في آيات اللَّه عز وجل، فيقلب وجهه في السماء، وقد قال مرة لأصحابه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»[(١)].

* سر التحول:

هذا الكون لوحة منصوبة على جدار الأفق، تموج بألوان من الآيات والتفاصيل التي تبعث القلب من رماد الغفلة، وتجعل له جناحين من تدبر وتفكر، كلما بسطهما كان ذلك أعون للقلب على الارتفاع من سفساف الطين

وحمأة القسوة، فيكون مهيأ للتلقي عن اللّه تعالى في كتابه المسطور، «وهو القرآن المجيد» وكتابه المنظور وهو الكون الواسع الكبير.. ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ذلك التفكر الذي أثمر التذكُّر، وفاض بأنواره على النفس فجاشت بالإيمان وقالت بلسان الإخبات: ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك!

إن رؤية هذا الإحكام، وسفر القلب في حقول الآيات المنثورة في الكون، يضاعف من نور الإيمان واليقين في القلب، فتكون العبادة حيةً نابعةً من قلبٍ حيٍّ، ويكون صاحب ذلك القلب أوفر نصيبًا من سكينة الإيمان وهدأة اللجوء إلى اللّه تعالى..

فكانت نظرة الفكر بدء التحول، وسر البعث الذي يكسو القلب بلذة الإيمان وحلاوة الضراعة والافتقار لخالق هذا الكون العظيم!

فانتقل من قسوة الصلصال إلى رقة الظلال..

ومن قترة المادية المثقلة إلى بحبوحة الإيمان ونوره..!

وخرجت من تابوت العادة الذي يمر بالآيات لا يشعر بها، إلى مطالعة الجمال الإلهي في الخلق والتصوير والإبداع المحكم:

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ - ٤].

* يالجلال القرآن!

كلما أدرت البصر في هذا الكون نطق كل ما فيه أن الذي خلق هذا الإحكام الدقيق، وجعل له هذا الإتقان الفذ والنظام المدهش إلهٌ قدير حكيم سبحانه وبحمده!

والبصر إناء القلب، كلما ارتوى من محيط الآيات الكونية، اتسعت مساحة اليقين في النفس، وتقلصت كل أدخنة الشبهات والشهوات!

* راحة وسعادة!

إنَّ رحلةَ التأمُّل في بديع صنع اللَّه -تعالى- في هذا الكون البديع الفسيح الكبير، والنظر إلى ما في هذا الوجود الجميل الباهر الرائع كفيلٌ بأن يمنح القلبَ زادًا من الأنس والمتعة، فوق زاد الإيمان والتقوى، إنه -وبلا شك- يُوقِع في القلب الإحساسَ بعظمة الخالق، والشعور بوحدانيته.

* عناية السلف بالتفكر:

روي عن السلف رحمهم اللَّه تعالى آثار كثيرة في الحث على تدبر وتأمل بديع صنع اللَّه تعالى في هذا الكون، وأن ذلك من صميم العبادة، ومن ذلك:

- ما قاله عامر بن عبد قيس: سمعتُ غيرَ واحدٍ ولا اثنينِ ولا ثلاثةٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ يقولون: «إن ضياءَ الإيمانِ أو نورَ الإيمانِ التفكُّرُ»[٢].

- ويقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيامِ ليلةٍ».

- ويقول: «إن من أفضل العمل الورعَ والتفكير».

- قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعض السلف: تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة».

- ويقول سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفكرةُ نورٌ يدخلُ قلبَك، وربما تمثَّل بهذا البيت:

إذا المرءُ كانت له فكرةٌ
ففي كلِّ شيءٍ لهُ عبرةٌ»

- وعن سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «طُوبى لمن كان قيلُه - أي كلامه - تذكُّرًا، وصمتُه تفكرًا، ونظرُه عِبَرًا».

- ويقول وهب بن مُنَبِّه رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما طالت فكرةُ امرئٍ

إلا فَهِمَ، ولا فَهِمَ امرؤٌ قطُّ إلا عَلِمَ، ولا عَلِمَ امرؤٌ قطُّ إلا عَمِلَ».

- ويقول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكلامُ بذكر اللَّه سبحانه حسنٌ، والفكرةُ في نعم اللَّه أفضلُ العبادةِ».

- ويقول بشر بن الحارث الحافي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو تفكَّر الناس في عظمةِ اللَّه تعالى لما عَصَوْهُ».

* نسيان!

ينبغي أن لا ينسينا بعض ما تيسر في حياتنا المعاصرة حقيقةً عريقةً ممتدةً في جذورنا منذ جئنا هذا العالم!

أننا ضعاف فقراء لا نكاد نعلم شيئًا..!

نعم!

نحن نعلم «بعض» التفاصيل لا كلها، وهذا مشاهد في أمورنا المادية والجسدية فضلا عما يتعلق بالأمور الإيمانية والفكرية..

إن فلانًا ذلك الذي ينظر من ثقب الباب على شارع كبير فيرى أشياء تمر مسرعةً، يعرف من أصواتها أنها سيارات، فإذا فتح الباب اتضح له هيكل السيارة من زاوية نظره وضوحًا ما، فإذا صعد فوقف على رأس بناية شاهقةٍ بدت له زوايا أخرى للأمر لم يكن ليعلمها لو ظل مكانه

أمام ثقب الباب أو عندما فتح الباب. . اتسعت الرؤية فاتسع علم الإنسان بالمشهد واكتملت في عينه زواياه!

وإذا جلس الإنسان إلى شاشات ترصد كامل المدينة التي فيها هذا الشارع لاتسعت رؤيته أكثر، ولاستبانت له معالم أكثر.

هذا مثال يسير صغير في أمر «العلم» بشيء مشاهد محسوس «ممكن» أن نستوعبه، ومع ذلك أغلبنا لا يحيط به علما. .

ما المشكلة إذن؟

المشكلة في النسيان!

نعم. . نحن ننسى. . كثيرا ما ننسى. .

ننسى ضعفنا الذي لا يستطيع الإنسان فيه بسط سيطرته على قلبه إن ألمَّ به حزن أو غشيته دمعة كآبة. . لا يملك ساعتها أن يضغط على زر في قلبه ليقلب حاله من الحزن إلى السعادة. . نحن ضعاف جدا!

ننسى جهلنا حتى بتفاصيل أنفسنا وأبجديات شئوننا الشخصية، ننسى جهلنا بماهية الروح وتركيبة المخ وحقيقة الموت وأسرار الخلايا. . وننسى جهلنا لم أحببنا هذا الإنسان بعينه ولم كرهنا ذلك الشخص الآخر. . ننسى تعليل حبنا وكرهنا وأسباب ذلك فينا. .

ولقد يطغى هذا النسيان بصاحبه فيطلب وهو الضعيف الذي لا يعلم إلا قليلاً، يطلب تصور الخالق، ومعرفة كنهه سبحانه وبحمده! وذلك من أعجب ما تراه من صور طغيان النسيان في عالم الناس اليوم! ممن اعتقدوا أن بعض الآلات والإمكانات المعاصرة تجعل من الإنسان كيانًا متألهًا، وكأن من حكمة ربنا سبحانه وبحمده أن جعلنا معرضين للأمراض وصور النقص البشري من جوع وحاجة للنوم، وحاجة إلى الراحة وتصريف العام وسائر ما فُطر الإنسان على الحاجة إليه؛ حتى يكون فيك ذلك المُعَلِّم الذي يذكرك كلما نسيت بوخزة من عصاه: في تعب، أو مرض، أو جوع، أو ظمأ: وكل ذلك يقول لك: أنت فقير ضعيف!

وكما أن للعقل مساحته الرحبة الفسيحة، لكنها تبقى محدودةً بقدراته وطاقته على التصور والإدراك!

ولذلك قال النبي ﷺ في رحمة بالغةٍ بالإنسان الذي ابتلي بنهمة التطلع، وشرَّة السؤال ولو في غير ما لا يطيق: «تفكَّرُوا في آلاء اللّه ولا تفكروا في اللّه»[٣].

ولكي تعلم أن هذا ليس قطعًا لسبيل العلم والازدياد من المعرفة، وإنما هو قطع لسبيل الحيرة وتوفير طاقة الإنسان أن لا تُهدر بالسير في حقول الشوك والشك.. قال ﷺ:

«إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: مَن خلق السماوات؟ فيقول: اللّه، فيقول: مَن خلق الأرض؟ فيقول: اللّه، فيقول: مَن خلق اللّه؟ فإذا أحس أحدكم من ذلك شيئا فليقل: آمنت باللّه ورسوله»[٤].

فهذا ليس من بابة العلم والمعرفة في شيء!

كمن يقول لك: تخير ما شئت من مطعوم طيب، وغذاء هنيء، واحذر ما لا تطيق أكله، وما لا تسيغه طبيعتك! فهذا ليس تضييقا لسعة المباح ولكنه رحمةٌ تحفظ عليك صحتك وعافيتك!

* ما يعينك على التفكر (الوسائل):

إن لكل غاية وسائل، إذا تعاطاها الإنسان وصل إلى تلك الغاية التي يريدها، ومن جملة ذرائع التفكر ما يأتي:

١) الممارسة والتعود، ولا ينبغي أن يكون كر الأيام وتتابع الأحداث المتشابهة عائقا لنا عن التفكر؛ فإن في خلق اللّه عز وجل من العجائب ما لو وقف عليه المرء لأدرك عظمة خالقه واكتشف قدرته وإبداعه، إلا أنه يحتاج إلى فكر ثاقب واجتهاد وخشية للّه تعالى.

٢) مخالطة العلماء الربانيين الذين أدركوا حقيقة التفكر المشروع، مخالطة لهم أو مطالعةً لنتاجهم.

٣) ديمومة النهل من كوثر التوبة الذي يغسل عن النفس حُجب المعاصي وأثقالها التي تقيد الإنسان في سيره متفكرا، وعمله متذكرا.

٤) الاجتهاد في الطاعة واستحضار الخشوع.

٥) ترك ما لا ينبغي من الأقوال والأحوال والأعمال.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٥

ارتقاء!

كي تنتفع بهذا الكتاب حق الانتفاع فإن عليك أن تُعْمِل آلة التصوير الذهنية عند قراءة الآيات القرآنية الواردة في ثنايا هذا الموضوع، ولا تظنن هذا الأمر بدعًا من القول، وإنما هو أمر جاءت به النصوص وحثَّت عليه كما مر معنا قبل قليل في «عبادة منسية»، بل وحذرت من تركه وإهماله، وهو ما يُسمَّى في عرف الشرع بـ (التفكُّر) أو (التدبُّر).

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما كان ليلة من الليالي قال النَّبيُّ ﷺ: «يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي» قلت: واللَّه إني لأحب قربك، وأحب ما سرَّك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجرَه، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول

اللَّه، لِمَ تبكي وقد غفر اللَّه لك ما تقدم وما تأخر؟، قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت عليَّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ٩١]» الآية كلها»[٥].

ويعتبر «الخيال الصادق»[٦] أو «التصوير» أحد أهم أركان عبادة التفكر والتأمل؛ لأن الخيال الصادق يحمل المؤمن على الارتقاء في منازل الدين إلى أعلى مراتبه ومعارجه العليا «الإحسان»، فيعيش حقائق الآيات الغيبية وكأنها حقيقة ماثلة للعيان، وتجعل المؤمن يعايش الآيات الشرعية والكونية بكل جوارحه وأعضائه، فيقشعر الجلد، ويوجل القلب، ثم يلين القلب والجلد والإحساس والفكر لذكر اللَّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

والمتأمل في نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة يجد

أن النصوص كثيرًا ما تخاطب عقل الإنسان وخياله بشكل مباشر، بل وتعتمد على ذلك في تصوير المعاني وتوجيه المشاعر والسلوك بشكل إيجابي مثمر.

إن نصوص الوعد والوعيد دائمًا ما تأتي بمفردات وتعبيرات وأوصاف تحفِّز الخيال وتستدعيه، وترسم ملامح المشهد الغائب وكأنه حاضر مشهود، وما ذاك إلا كي يعايش القلب والعقل المعنى وكأنه جزء من المشهد والحدث.

وبهذا ندرك معنى قول النبي ﷺ: «من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عينٍ فليقرأْ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾»(٧)؛ لأن هذه السور العظيمة «التكوير، والانفطار، والانشقاق» وغيرها؛ فيها شخوص معاني القيامة وأحداثها ماثلةً بين يدي الإنسان إذا طالعها بقلبه وأبصرها بروحه!

ولقد يسلم الإنسان نفسه إلى جلال القرآن، فيبسط عليه القرآن سطوته- فإن للقرآن سطوةً نوريةً على قلب قارئه شاء أم أبى-فينتقل من مكانه وزمانه ويجد للآيات ذوقا في نفسه رغبًا ورهبًا..

قال طيب الجمال: «صلَّيْت خلف سهل بن عبد اللَّه العتمة، فقرأ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، وجعل

يُحَرِّك شفتيه وفمَه، كأنه يمصُّ شيئا، فلما فرغ قيل له: أتشرب أم تقرأ ؟ فقال: واللَّه لو لم أجد لذته عند قراءته كلذته عند شربه ما قرأته».

وللقرآن حلاوة ناضرة في هذا الباب عظيمة! فأنت عندما تقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] لا تستطيع حجب الخيال عن تصور مشهد القوم والطير الأبابيل ترميهم بالحجارة فيقعون صرعى كأنهم بقايا زرع يابس.

وإنني أجزم أنَّ كل واحد منا عندما يقرأ «سورة يوسف» أو يسمعها يجد نفسه وكأنه يرى المشاهد تُعرَض أمامه، وكأنه انتقل من زمانه ومكانه إلى ذلك الزمان والمكان الذي وقعت فيه أحداث القصة، بل إن الواحد منا في كل مرة يعيش القصة وكأنه يسمعها لأول مرة، ولذلك تنتابه مشاعر الحزن أحيانًا، والفرح أحيانًا أخرى، كل ذلك حسب الآيات والأحداث؛ إنها عظمة القرآن في تفعيل الحواس والخيال.

وفي قصة ابن نوح والطوفان: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن

﴿رَحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢- ٤٣]، ترى المشهد حيا بأمواجه الهادرة، وما فيه من لوعة الأب المكلوم المشفق على ابنه، ويبس ذلك الولد وقسوة قلبه، والنداء الملتاع الذي كأنك تسمع أصداءه في الكون كله: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢] وهو نداء مخلوط بهدير الموج وحسرة الفقد ولوعة الألم واستكانة المستسلم لأمر اللَّه النافذ في هلاك ابنه وشقوته.. وأنت ترى مشهد السفينة تحمل نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بعيدًا يكفكف دمعه حزنًا على ابنه وهو يراه يغرق بين يديه!

أيُّ حياةٍ تلك الحياة التي في ألفاظ القرآن ومعانيه ووقعه وجَرْسِه! أشهد أن هذا كلام رب العالمين ولا يطيق إنشاءَ هذا البيانِ الخلقُ كلهم!

والأمر ذاته يتكرر في حوار أهل الجنة وأهل النار في سورة الأعراف: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٦- ٤٧].

أعِدْ قراءة هذه الآيات فيما بينك وبين نفسك!

أعِدْ مشاهدتها بروحك، والإصغاء إلى أحرفها الإلهية بقلبك!

وأطل على معانيها ماثلةً بين يديك، لترى أهل الأعراف ينظرون إلى أهل الجنة فيرون ما هم فيه من النعيم، فيبعثون إليهم سلام الطامع الخائف! ثم يلتفتون فيرون السعير تحطِمُ أهلها حَطْمًا وتنهمر عليهم بلظاها الأسود المظلم، فيرتاعون خائفين مهرولين إلى ربهم داعين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧] وأنت تبصر حياءهم ووجلهم إذ طمعوا في أن يكونوا من أهل الجنة لكن ما انطلقت ألسنتهم حياءً بالدعاء!

وترى خوفهم وفزعهم من مصير أهل النار، إذا مرت أعينهم بهم مرا لا قصدا للنظر، بل قال تعالى: ﴿صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فهم لم يقصدوا إلى النظر قصدا! وكيف يطيقون؟! فيدعون دعاء الخائف الوجِل: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾! دعاء خائف يطمع لكن أسكته الخوف وألجمه الحياء المسكين!

كأنهم يقولون: نعوذ بك أن نكون مع هؤلاء.. فأدركنا برحمتك أن نكون مع أولئك في دار النعيم!

وها أنت ترى المشهد يثور في نفسك ويمس روحك مسًّا كأنك فيه، فتوقن القلوب بعد تلك السطوة القرآنية أن المتكلم بهذا لا يكون إلا اللّه رب العالمين!

وفي وصف الفريقين في سورة الزمر: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ

بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]، نجد أن القلب يرجف من المشهد عندما يعايش الحدَث، وهو يرى الموازين قد نُصِبَت، والمحكمة قد أُقيمت، والحَكَم قد حكَم؛ وكأنه رأي عين.

وهكذا يجد الواحد فينا الصور والمشاهد تتداعى إلى ذهنه بشكلٍ تلقائي من خلال خياله الصادق عند سماعه لقول النبي ﷺ: «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما تقولون يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو اللَّه بهن الخطايا»(٨).

وفي قول النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل واعدد نفسك في الموتى»(٩)، فالتوجيه النبوي قائمٌ كله على تفعيل الخيال الصادق في قلب وعقل المؤمن حتى يصل إلى مرتبة الإحسان «كأنك تراه» و«اعدد نفسك».

وقل مثل ذلك في قول النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(١٠)، وقوله ﷺ: «مثل القائم على حدود اللَّه والواقع فيها

كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[١١].

إن «الخيال» كما يقول العلماء أداة الإبداع، وهو أحد النعم العظيمة التي وهبَها اللّه سبحانه وتعالى للإنسان، بل وميَّزه بها عن سائر المخلوقات، يقول أينشتاين: «الخيال أهم من المعرفة»؛ لأن الخيال ينقل الإنسان من عالم إلى عالم، ومن مكان إلى مكان.

إنَّ مَلَكة الخيال والتصور أنواع كثيرة:

- فثمَّة خيال يكشف لك المستقبل، ويستدعيه في صور تظل تلحُّ عليك، وتفعل فعلها في وجدانك وشخصيتك.

- وثمَّة خيال يصوِّر الحاضر البعيد الذي لا تطاله عيناك.

- وثمَّة خيال يرسم الماضي، وينقلك إلى الغابر من أحوال الأمم والرسل، وصراع الحق والباطل.

- وثمة خيال يحملك على رؤية الأشياء على حقيقتها التي خلقَها اللّه عليها، وإن بدت عند العالَم الغافل شيئًا

آخر(١٢).

فإذا مر بك نص في هذا الكتاب فتلقه بقلبك، وأصغ إليه بروحك، وخضه وانفذ في أعصابه وتفاصيله وعشه حق المعايشة من خلال إعمال الخيال الصادق الذي ينفض عن الروح غبار الغفلة ورماد القسوة، فتكون حياته كلها ارتقاءً، كما قال أبو سليمان الداراني: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت للَّه عليَّ فيه نعمة، ولي فيه عبرة».

* * * * *

تأمّل

إنّهم أمم أمثالكم

"وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ
بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم" الأنعام (٣٨)

٦

جيراننا عقلاء!

يتصور جلُّ الناس أن جيراننا الذين يشركوننا العيش في هذا الكوكب الفسيح من الكائنات والحيوانات، صمٌّ بكم عميٌ، ذهبت عنهم الهداية وغابت عنهم المشاعر والأحاسيس!

وتلك إحدى صور التكبر الإنساني البغيض!

فلا عجب أن ترى الواحد منا يتعامل مع هذه العوالم المختلفة بشيء من الاستخفاف واللامبالاة، أو ربما الاحتقار والازدراء!

لكن هل الأمر حقًا كذلك ؟ أم أن لهذه العوالم التي من حولنا عقولاً تدرك وتعي وتحلل وتختار ما بين ما هو ضارّ وما هو نافع، بل ومشاعر وأحاسيس وعواطف مما قد يفتقده كثيرٌ من البشر في عالم اليوم؟!

إذا رجعنا إلى أصل العلوم وأعظمها وأشملها القرآن

الكريم لوجدنا **مفاجأة كبرى وحقيقة عظمى، مفادها أن هذا الكون حيٌّ مدرك قادرٌ على التعبير** بطريقة عجيبة مذهلة، تبدو للوهلة الأولى وكأن الكون يملك عقلا قد صقلته التجارب والحياة، ينظر إلى الأمور نظرة الحكيم المتدبر للعواقب ويبني أحكامه بناء على ذلك، بل عنده من المشاعر والأحاسيس الشيء الكثير.

قال تعالى عن إدراك الكون: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فالنَّظَرُ إلى العواقب هو الذي منَع هذا الكونَ من قبول أمانة التكليف بل والإشفاق من ذلك، ولولا ما في الكون من طاقة الإدراك والاختيار ما عرض اللّٰه سبحانه وتعالى على الكون هذا العرض الخطير أصالة، ولولا إدراكه ما أجاب هذه الإجابة الواعية.

انظر ما قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه عرض الأمانة، وهي التكاليف مع ما يتبعها من ثواب وعقاب على السماوات والأرض والجبال، وأنهنَّ أَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ منها، أي: خِفْن من عواقب حَمْلِها أن ينشأ لهنَّ من ذلك عذاب اللّٰه وسخطه.

وهذا العرض والإباء، والإشفاق كله حق، وقد خلق اللَّه للسماوات والأرض والجبال إدراكا يعلمه هو جل وعلا، ونحن لا نعلمه، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها، وأبت وأشفقت، أي: خافت، ومثل هذا تدل عليه آيات وأحاديث كثيرة»(١٣).

والأمر لا يقف على الإدراك، وإنما يتخطى ذلك إلى القدرة على الكلام والتعبير! قال تعالى عن السماوات والأرض: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فأثبتَ لهما سَمْعًا وفهمًا وقَوْلاً.

والكلام ليس مقصورا على السماوات والأرض، بل يتعدى ذلك إلى مخلوقات أخرى، فقد قال عن سليمان عليه السلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، فللطير منطقٌ وكلام ومشاعر وأحاسيس!

ففي سنن أبي داود وغيره عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه أن حُمَّرةً «وهي طائر صغير يشبه العصفور» جاءت ترفرف تبث آلامها إلى النبي ﷺ وقد أخذ بعض الصحابة أفراخها الصغار، فقال النبي ﷺ: مَن فَجَع هذه بولدها؟! رُدُّوا ولدها إليها!

والتعبير هنا بالفجيعة ناطقٌ بما يعتمل في نفس تلك

الحُمَّرة من آلام الفقد ولوعة الحرمان! مع ما فيه من بيان ما في قلب النبي ﷺ من جلال الرحمة ودفء الحنان!

وكذلك للنار منطق وكلام! قال تعالى حاكيا عن النار يوم القيامة وقد ابتلعت من ابتلعت في سعيرها من الذين صادموا الحق وعاندوا الدين وانحرفوا عن صراط الهداية: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، فأثبت لها منطقا وكلاما وشعورا بالغضب والغيظ! ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ الآية!

وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾! وهذا يجعل في نفس العبد عند تلاوة هذه الآيات مشاعر تتلهَّبُ من الخشية والخوف؛ إذ ليستِ النارُ مكانًا للعذاب وحده، بل هي مخلوقٌ فيه الغضب والغيظ على أولئك الذين تمردوا فعتوا عن أمر ربهم وأشعلوا الدنيا بسعير الضلال ولهب الفتن، فهي تتلقاهم بما فيها من الغضب والغيظ على ما اقترفوا من سواد الكفر والضلال المبين!

وقد صور القرآن مشهد الكافرين يوم القيامة وهم يتعجبون من شهادة أعضائهم عليهم: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، فهي لم تكتفِ بالنطق ولكن بالشهادة

عليهم، وهل تصح شهادة من لا عقل له ولا حياة!

بل قد ورد بأن هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان، والتي لم يسمع حديثها، أو لم يخطر على باله أنها تتحدث، ستتحدث يومًا ما لتخبره بكل طاعةٍ كانت منه عليها؟ أو معصية!

نعم إن الأمر كذلك!

قال -تعالى- مصورًا ذلك اليوم: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ١-٥]، وهذا الشعور يجعل المؤمن محتاطًا متأدبًا متواضعًا، فهو لا يركب جمادًا لا يعقل، بل هو يمتطي كائنًا حيًّا له وعيه ومشاعره.

وهي آيات تنشر في الوقت نفسه أنداء اليقظة وتبعث في الروح الإقبال على طاعة الله تبارك اسمه، وشتان ما بين اثنين: هذا يبصر تلك الحقيقة فيوسع من شهود الخير له، فإذا ضرب في الأرض مسافرًا ولو في نزهة اتخذ ذلك فرصةً للاستكثار من شهود الخير، فيغرس هاهنا تسبيحة، ويخلو هنا ساجدًا، ويتعبد هنالك محسنا بغضّ بصره، وعفة قلبه ولسانه، ويصون نفسه حياء من نظر ربه إليه، وحياءً من الكتبة الحفظة، وحياءً من الأرض

التي ستنطق بما كان عليها من خير وشر!

وآخر طمس نفسه فأغلق نوافذ الخير فيها، فهو يتخذ من أسفاره وخلواته متنفسًا لأمراض القلب وشهواته المعتمة! فهو لا يتسع في الأرض سفرا وترحالا بل يوسع دائرة الشهود عليه بالعصيان وركوب الحرام وكسر إناء العمر في الوهم والضلال!

نعم !

هكذا يربينا الوحي ويقيمنا على نهج الفطرة السامي!

ولو تأمَّلنا في أسلوب النِّداء القرآنِّي لوجدناه لا يُفرِّق بين نداء ما يعتقده الناس حيًّا وما يعتقدونه ميِّتا، فاللَّه يُنادي الكل نداء العاقل المدرك لما يُنادَى به، وذلك لأن كل شيء في الكون حيٌّ على طريقته، سواء نُفِخت فيه روح أم لا! تأمل معي هذه الآيات: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾، ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾، ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾.

فتقسيم المخلوقات إلى عاقلة وغير عاقلة تقسيم نسبي، أما حقيقة الأمر فهي خلاف ذلك، فلكلٍ عقلٌ يناسب طبيعة تكوينه ووظيفته في الكون كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ

شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾!

فما نسميه حيوانات غير عاقلة أو نباتات لا تعي، إنما هي في حقيقتها أمم أمثالنا فيها من القصص والحكايات والأخبار والأسرار والصفات والخصائص ما فيها! ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾.

وهذا كله بالطبع يصادم معتقداتنا الموروثة عن الكون بعوالمه المختلفة! لكنه حديث القرآن الكريم ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

نعم إنه لعالم حي، فيه عوالم تفيض بالحياة وتملك ما تملك من العقل والحياة والكلام وخزانات المشاعر والأسرار! وإن كنا نحن بني البشر محاطين بستور من الغفلة وحجب من الإدراك القاصر والجهالة المتفاخرة! لكن هنالك يومًا تتكشف فيه حقائق الأشياء عاريةً من حجب الزيف والغفلة، هنالك في ساحات يوم القيامة.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٧

أحاسيسُ ومشاعرُ

من تأمل في القرآن الكريم وجد أن اللَّه سبحانه وتعالى كثيرًا ما يتحدث عن تمتُّع هذا الكون بكائناته وعوالمه المختلفة بالمشاعر والأحاسيس التي هي روح الحياة، فمن لا مشاعر له لا حياة له، ومن يملك المشاعر والأحاسيس يملك الحياة، وهذه المشاعر كثيرة جدا يصعب حصرها، ولكن نذكر هنا بعضها، وبعضها الآخر مبثوثٌ في كتابنا هذا كله.

أولا: الخشوع

وهو الخضوع بالتذلل والاستكانة.. وهذا الشعور الراقي السماوي، لا يمكن أن يكون إلا لمن امتلأ بالحياة الحقيقية.. قال تعالى واصفًا تأثير نزول القرآن لو أنه نزل على الجبل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ

نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، قال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومذهب أهل السنة أن الحجر وإن كان جمادا لكنَّ اللَّه يُفْهِمه ويُلهمه، فيخشى بإلهامه! فإن للَّه تعالى عِلمًا في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره، فلها صلاة وتسبيح وخشية... فيجب على المرء الايمان به»(١٤).

وهذا الشعور يستبد بالحجر الصلب حتى إنه ليتركه دكًّا مستويًا بالأرض من شدة تعظيمه للَّه وخشيته له! قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ثانيا: الخشية

الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم مما يخشى منه، وقد أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى عن مشاعر الخشية التي تجعل الحجارة تهبط أو تتفجر أو تتشقق من خشية اللَّه.. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤]، قال مجاهد: «ما تَرَدَّى حجرٌ من رأس جبل، ولا تفجَّرَ نهرٌ من حجر، ولا خرج منه ماءٌ إلا من خشية اللَّه، نزل بذلك القرآن الكريم»(١٥).

ثالثا: الغضب:

فقد أخبرنا القرآن الكريم أن جهنم - مثلًا - ليست تنورًا للعذاب لا عقل له، وإنما هي كائنٌ له عقل ووعي ومشاعر، بل إن مصدر عذابها وشدته نابعٌ من غضبها للّه، فهي مغتاظة على الجاحدين، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، وهذا الغيظ الذي تبديه جهنم لأهلها ليس ناتجا من قسوة طبعية، بل من غيرة إيمانية!

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الرجل ليُجَرُّ إلى النار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ قالت: إنه يستجير مني. فيقول: أرسلوا عبدي!

وإن الرجل ليُجَرُّ إلى النار فيقول: يا ربِّ! ما كان هذا الظنَّ بك! فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك! فيقول: أرسلوا عبدي!

وإن الرجل لَيُجَرُّ إلى النار فتشهق إليه النار شَهْقَةَ البغلة إلى الشعير، وتزْفُر زَفْرَةً لا يبقى أحد إلا خاف»[١٦].

رابعا: الشفقة

ومنها شعور الشفقة هيبةً من اللّه وإجلالاً له! قال النبي ﷺ: «إن يوم الجمعة سيِّدُ الأيام وأعظمُها عند اللّه، وهو

أعظمُ عند اللَّه من يوم الأضحى ويوم الفطر، فيه خمْسُ خِلالْ: خَلَق اللَّه فيه آدمَ، وأهبط اللَّهُ فيه آدمَ إلى الأرض، وفيه تَوَفَّى اللَّهُ آدمَ، وفيه ساعةٌ لا يسأل اللَّهَ فيها العبدُ شيئًا إلا أعطاه، ما لم يسأل حرامًا، وفيه تقوم الساعة، ما من مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا سماءٍ ولا أرضٍ ولا رياحٍ ولا جبالٍ ولا بحرٍ إلا وهُنَّ يُشْفِقْنَ من يوم الجمعة»(١٧).

خامسًا: الحب

فقد كان رسول اللَّه ﷺ يبادل هذه الأشياء مشاعرها، فكان يقول عن جبل أُحد: «هذا جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ»(١٨)، وهو يخاطبه كما يخاطب الأحياء، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ أُحُدًا وَأَبو بكر وعمر وعثمان، فَرَجَفَ بهم، فَقَالَ: «اثْبُتْ أُحُد؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ»(١٩)، وَذِكْرُ رسول اللَّه ﷺ للنُّبُّوة والصدِّيقيَّةِ والشَّهادة في خطابه للجبل يدلُّ على إدراك الجبل لمعانيها وسموها، وإلا لما خاطبه بذلك.

سادسًا: الرحمة

وهو ذلك الشعور الراقي العظيم الذي يجعل في القلب صلةً عليا بما حوله من المخلوقات، وأي صلة أعظم من

ذلك الحب الذي يفيض بالرحمات ! وقد أنبأنا الوحي المبارك عن المشاعر الفياضة من قلوب الأشياء رحمةً تندى بالدمع حبًّا للمؤمن، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان:٢٩]، وقد قال مجاهد يقرر هذا المعنى: «إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحًا. قال أبو يحيى: فعجبت من قوله! فقال: أتعجب؟! وما للأرض لا تبكي على عبدٍ يَعْمُرُها بالركوع والسجود؟! وما للسماء لا تبكي على عبدٍ كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل»؟!

وقال علي وابن عباس رضي الله عنهما في صفة المؤمن: «إنه يبكي عليه مُصَلَّاهُ من الأرض ومَصْعَدُ عمَلِه من السماء».

إن هذه النصوص تستفتح في النفس آفاقًا أخرى أبعد مما بين المشرقين، وترسم للعالم لوحةً أخرى غير التي نعرف! وإن قلبًا يمتلئ بهذه المعاني سيكون أبعد القلوب عن القسوة، وأعظمها حظًّا من الرحمة التي تسع الكون كله وليس البشر وحدهم! فلا يكون في قلبه بغضاء، ولا حقد ولا ضغينة، ويكون سماويا: غضبه للَّه، ورضاه للَّه، الرحمةُ أحب إليه من كل شيء، والرفق منهجه في كل شيء، حتى مع ثوبه الذي يلبسه!

نعم لا تعجب من هذا!

هذا شيخ الإسلام ورأس العلماء في زمانه أبو عبد اللَّه سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ، يذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته هذا الفعل الراقي!

قال مهران الرازي: رأيت الثوري إذا خلع ثيابَه طواها! وقال: إذا طُوِيتْ رجعتْ إليها نفسُها[٢٠]!

إن دينا يربي الناس على هذا الخلق العظيم، ويغذو في النفس هذه المعاني العالية هو دين الحق الذي لا مكان فيه لسفك دم حرام، ولا هتك الحرمات وإباحة الأعراض، واستحلال أموال الناس بالباطل!

إن الذي يعتقد المشاعر والأحاسيس فيما يحسبه الناس جمادًا لا يعقل، وحجرا لا يشعر لا يحمل للعالم الأذى بل الرحمة، ولا الدماء بل الحياة، ومتى دفع عن نفسه فبالحق لا بالفساد، وبميزان العدل لا بالسعي في الأرض فسادًا يستبيح الناس والعالم كما تفعل المدنية المتأنقة المعاصرة!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٨

فصاحة وبيانٌ!

لأئمة الأدب دواوين تجمع من براعات الخطباء وذوي اللَّسَن والبلاغة وأمراء البيان ما يحار المرء في براعته وروعته، وما فيه من جمال بديع اختص به العرب دون سائر الأمم!

وانظر إلى «البيان والتبيُّن» للجاحظ، وما سطره ابن قتيبة في «أدب الكاتب»، وما تفنن في إيراده أبو علي القالي في «أماليه». . تجد عجبا عجيبا من مذخور الكلام والبيان!

ولكنَّ في القرآن بيانًا آخر عن فصاحة أمم أخرى، حُجبت عنا فلم نحسن الفهم عنها؛ لأن ذلك خِصِّيصةٌ اختص اللَّه بها بعض أنبيائه وهو سيدنا سليمان عليه السلام، وكذلك ما ورد في صحيح السنة من فقه النبي ﷺ وفهمه عنها.

وقد قال الشاعر:

ويفهم قول الحُكْلِ، لو أنَّ ذرةً

تُساوِدُ أخرى، لم يفته سِوادها!

والحُكل: ما لا يُسمع له صوتٌ كالذر والنمل(٢١)!

وقد أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى عن قصة سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام مع طائر الهدهد فقال سبحانه: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، وبنبرة الحزم قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢٠- ٢١]، والسؤال: هل يتفقد نبي اللَّه سليمان عليه السلام طيرًا لا عقْلَ له، ويتوعد بالعذاب من لا فهم له؟! والعجب لا ينتهي هنا، بل إنه يزداد مع استمرار الآيات والأحداث.

فبعدما جاء الهدهد، ومعه الحجة التي يبرِّر بها غيابه، وهي حُجَّةٌ جعلته يدخل على نبي اللَّه سليمان عليه السلام شامخَ الرأس والبيان، يقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وبنبرة الغاضب للَّه المعظم لجناب التوحيد، الكاره للشرك، قال الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]، وبنبرة العارف باللَّه

والناصح لخلق الله قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥- ٢٦]، وقد عبَّر عن معرفته للَّه بحسب حاله، فذكر من صفات اللَّه أنه ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

سبحان اللَّه! لو أعدْتَ قراءة هذا المقطع من الآيات مرةً أخرى، وتناسيت أن الحديث عن الهدهد، لظننتَ أن الحديث عن عالِم من علماء الأمة الربانيين، أو عن نبيٍّ كريمٍ من الأنبياء العظماء، لكنَّ الحقيقةَ المذهلة أن الحديث كان عن طائر صغير يسمى «الهدهد»!

إننا نجد أنفسنا أمام هدهد عجيب، ينطق بعبقرية الإيمان وبراعة العلم، في حرف فصيح أخَّاذ، وبلاغة آسرة، وإدراكٍ ذكي لما ينطق به ويخبر عنه، مع الوصف الدقيق لحال من يخبر عنهم، فهو يحكي أنه شاهد مَلِكةً لها رعيةٌ يخرقون ناموس الفطرة وسنن الكون، ويتوجهون إلى غير قبلة الإيمان ويسجدون لمخلوقٍ من مخلوقات الخالق العظيم الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض، ويعلم السر والعلانية ! والسجودُ حقٌّ له وحده، لأنه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾!

بيان يهدر بالنور ويتوهج بالإيمان من فم ذلك الطائر الرقيق الصغير الضئيل في دنيا الناس: الهدهد!

وهكذا يخبرنا سبحانه وتعالى عن قصة ثانية وقعت لنبي الله سليمان عليه السلام ولكن هذه المرة مع النملة، فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

فهذه النملة الصغيرة محاصرةٌ بمخاوف القلق على عشيرتها، وهي تريد حفظهم من ذلك الموج المُسَلَّحِ، والطوفان المُجنَّد: سليمان وجنوده!

ومع أن الخوف يحبس اللسان عن البيان، فتبلى الألفاظ في حلق صاحبها، وتموت البلاغة ولا يبقى سوى الصراخ والفزع والهلع في مثل ذلك الموقف!

لكنَّ تلك النملة اعتلت ربوة البيان، وقامت بفصاحة أخاذة ومنطق باهر لم يخلُ كتابٌ من كتب البلاغة من التمثيل به على فخامة البيان، فوعظت وأنذرت وحذرت ونادت وخصصت ونصحت واعتذرت في بيانٍ متلألئ!

فمع أن النملة كانت في موضع تهديد بوطء جيش سيدنا سليمان عليه السلام لها، إلا أنها لم تكتفِ في تلك اللحظة المملوءة بالرعب أن تفرَّ بنفسها، ولكنها التفتت إلى

النمل من أصحابها وأمرتهم أن يفروا بأنفسهم، ثم هي لم تتخلَّ عن الأدب مع صعوبة الموقف وشدته، فذكرت عذر نبي اللَّه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وجنوده، وهو أنهم قد يطؤونهم من غير شعور منهم، وهو خُلق نبيلٌ قلَّ مَن يكون عليه من البشر.

سبحان اللَّه! كيف هذا! نملة تتكلم! وتأمر وتنهى! وتدرك وتميز! وتتوقع عواقب الأمور، وتلتمس الأعذار لغيرها! ولذلك لا عجب أن كانت ردة فعل نبي اللَّه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وأنا كلما طالعت مثل هذه الآيات المباركات أستشعر في نفسي معنى غرور كثير من الناس ونسيانهم أن هنالك أممًا أخرى أعبد وأهدى من كثير من بني آدم، يحسنون الثبات ويحسنون الاعتذار، ويعتصمون بالنبل، ويعيشون بالإيثار، ويبنون لهم عالمًا فيه أنفاس التسبيح وقواعد الخلق الرفيع! ياللإنسان!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٩

شهادة الواقع!

كثيرًا ما يقع أمام أعيننا مشهدٌ أو سلوك لحيوان أو طائر أو حشرة أو حتى ميكروب، يكون خارجًا عن مألوف ثقافاتنا ومعتقداتنا ومستغرَبًا صدوره من كائن نعتقد أنه لا يعقل ولا يشعر بمن حوله ولا يعرف حتى مَن هو! لكنها شهادة الواقع التي لا تكذب.

نعم! إن شهادة الواقع لا يمكن أن تكذب، ونحن وإن اصطلحنا على تسمية مثل هذه الأمور بـ «غرائب وعجائب عالم الحيوان والطيور والجمادات»، إلا أن الحقيقة تبقى ماثلة للعيان، بأن ثمة أمرًا يخالف ما نعتقده عن هذه المخلوقات.

وهذه جولة سريعة على سبيل التمثيل وليس الحصر لأمور عجيبة:

* المغامرة القاتلة!

فهذا مقطع فيديو على اليوتيوب بعنوان: «جاموس صغير ينجو بأعجوبة من بين أنياب مجموعة من الأسود»[٢٢].

وعند مشاهدة المقطع، ستجد فيه مجموعة من الأسود تتبع قطيعًا من الجاموس يفر أمامها، فتهجم على صغير منها لم يستطع الفرار مثل كبار القطيع، فما يكون من قطيع الجاموس إلا أن يعود لهذا الصغير، وبعد مناورات شاقة مُضْنِية استطاعوا جميعًا إنقاذَ صغيرهم من فم الأسود المتكالبة عليه؛ ليعود سالمًا إلى القطيع!

فإذا كانت هذه الحيوانات لا تعقل ولا تدرك ما يدور حولها، فلماذا بربك غامرت وعرَّضت حياتها لخطرٍ محقَّق من أجل صغيرها، وفلذة كبدها؟!

* وفاء وأي وفاء!

وهذا مقطع آخر بعنوان: «وفاء الأسد»[٢٣]:

الأسد! ذلك الوحش المفترس يضرب المثل بالوفاء!

تقول القصة: إن إحدى السيدات في دولة كولومبيا عثرت على شبل أسد جريح، فأخذته وعالجته، ومكث عندها فترة، ثم رأت أن ترسله إلى حديقة الحيوان،

وبعد ٦ سنوات من إرساله ذهبت لتزوره في الحديقة، فما كان منه إلا أن استقبلها بالأحضان والقبلات في مشهد أثار دهشة واستغراب جميع الحاضرين!

لقد استطاع الأسد تذكُّر هذه السيدة، بل تذكر المشاعر الدافئة من الرعاية والعناية التي كانت تعامله بها، وهو يرد لها بعض فضلها عليه!

كائن اعتاد الفَرس واشتهر بالقسوة يحفظ الجميل ويصون الإحسان! بعد ست سنوات!

أعترف أن هاهنا ما يحرج كثيرا ممن انتسب إلى الآدمية!

* المفترس الرحيم!

وهذا مقطع ثالث مؤثر جدًّا لنمر بعنوان: «نمر يرحم قردًا صغيرًا»[(٢٤)]:

هذا النمر الذي أخذ يفترس أنثى قرد حاملًا في شهرها الأخير، وأخذ يجرها بقسوة صاعدًا بها شجرة من الأشجار العالية يريد أن يتوارى بها عن أنظار منافسيه من النمور الأخرى، وبينما هو يأكل جزءًا من جسدها إذ خرج من بطنها قردٌ مولودٌ، وعلى الفور انتابت النمرَ حالةٌ من الندم والذهول! فأبلس وتوقف، وقام باحتواء الرضيع بحنان غريب مدهش، أخذ يلعقه بلسانه ويضمه إليه

بشكل مؤثر للغاية، فهل من المناسب الآن أن نقول: إن هذا الوحش المفترس الجبار لا يعقل؟! فكيف إذن علم أن هذا مولود رضيع لا حول له ولا قوة، ويحتاج إلى من يرعاه؟ هل تصدر هذه التصرفات عن كائن جاهل لا يعلم من أمر نفسه شيئًا؟!

وهناك العديد والعديد من مقاطع الفيديو والقصص التي يقف أمامها العقل البشري حائرًا مندهشًا، لا يكاد يصدِّق ما يرى، إن بها معاني غاية في الرقة والجمال تمتلئ بالأمومة والأبوة والمشاعر النقية مثل التضحية والفداء والصداقة والتعاون وعمل الفريق، كل هذا وغيره الكثير تجده - بدون جهد في البحث والملاحظة - في عالم الحيوان، فمن الذي علَّمها؟ ومَن الذي ألهمها؟ إنه اللَّه -سبحانه وتعالى-.

* والنبات أيضًا!

قد تقول: إن هذا السلوك الذكي المتبصر ربما يكون مواهب وملكات خصَّ اللَّه -تبارك وتعالى- بها الحيوانات فقط، لكن ستدهش إذا دخلت معي إلى عالم النبات، وشاهدت بعينيك كيف تتدبر النباتات شئون حياتها؟ وكيف أن منها ما يتغلب على أقصى الظروف

البيئية من جليد، أو أمطار، أو جو جافّ لا ماء فيه طوال العام..

إن الكثير من التجارب العلمية الحقلية التي أُجريت على أيدي خبراء في علوم النبات، أثبتت أن النباتات تحسّ وتشعر تفرح وتتألم كما يحس ويشعر ويفرح الإنسان تمامًا بتمام، وأن محصولها وإنتاجها من حيث الغزارة والقحط يتأثر بشدة بهذه العواطف والمشاعر، وأن منها ما يطلق صفارات إنذار لإخوانه من حوله في حالة الخطر، ومنها ما يتغير لونه وطعمه إذا تناوله عدو له !! هل هذه النباتات تسمع وترى؟! هل تعقل[٢٥]؟!

* مع الطير!

وكذلك عالم الطيور فيه ما فيه من ذكاء وعبقرية!

فهذا حمام يرسل الرسائل إلى أقصى الأرض، ثم يعود إلى بيته مرة أخرى دون أن يضل الطريق!

وتلك غربان تفكر وتحلل وتأخذ القرارات!

وهذه ببغاوات تتكلم وتتعلم الحساب!

وتلك هداهد غاية في الذكاء!

أمومة طاغية، صداقات، ومحاكمات لمن يخطئ! وقانون عقوبات يُطَبَّق بكل صرامة تصل فيه العقوبة حتى

الإعدام، ونتف الريش، والنفي من مدينة الطير! وهناك من يضحّي بعمره لأجل بيته وأسرته، ومنها ما يقوم بالحراسة أو الاستطلاع!

عوالم مدهشة عجيبة! وهذا كله يرجعنا إلى تساؤلنا الأول: هل هذه كائنات لا تعقل؟ فمن أين جاءها هذا العلم والقدرة على التحليل؟![٢٦]

* والحشرات كذلك!

الحشرات أيضًا كائنات تتمتع بقدْر عالٍ من الذكاء والقدرة الذهنية وحسن التصرُّف في المواقف الصعبة.. بل إنَّ بعضها يُعتبر معلمًا للإنسان، فتتميز الحشرات وخصوصًا طائفة النمل والنحل بقدرات خارقة على البناء، فمساكنها في غاية الإحكام والبراعة في فنون العمارة التي تستخدم فيها أفضل وسائل الراحة والأمان.. إن مساكنها تشهد لها بتفوقها على غيرها في علم الهندسة، ليس ذلك فحسب! بل إنها تتمتع بالمعيشة في مجتمع متحضر للغاية يفتقر إليه معظم سكان الأرض من البشر، فلديها نظام صارم في العمل والمواصلات، حتى حروبها التي تشنّها منظمة جدًّا، فهناك قادة وجنود وطاعة للأوامر ووضع للخطط وغير ذلك.

وقد ثبت أن لدى الحشرات قدرة عالية على التمويه والخداع للّهروب من الأعداء، وهذا ما جعلها بهداية اللّه لها تمثل ٢٠٪ من الكتلة الحيوية على كوكب الأرض، لقدرتها العالية في الحفاظ على حياتها وبقائها[٢٧].

* لغة الميكروبات!

بل حتى الميكروبات ليست أقل من المخلوقات التي ذكرناها ذكاءً وفطنة، فستدهش إذا علمت أن للميكروبات لغة تخاطُبٍ، ولكل جنس منها لغته الخاصة به، والأكثر دهشة أن بعض أفراد أجناس الميكروبات يعملون كمترجمين ينقلون لغة أجناس أخرى إلى لغة بني جنسهم، واقرأ -إن شئت- عن العلم الجديد المسمى. (Quorum sensing)

كما أن للميكروبات وسائل رائعة في الدفاع عن نفسها، وما المضادات الحيوية التي نستخدمها في علاجاتنا إلا أحد هذه الوسائل، كما أنها تسبح وتهاجر في أسراب مثلما يحدث في عالم الطيور والحيوان تمامًا بتمام[٢٨].

بل إن العلم الحديث بدأ يكتشف هذه الحقيقة، فقد أظهر كتاب جديد مثير للجدل أن الحيوانات تملك حسًّا

أخلاقيًا يجعلها قادرةً على التمييز بين الصواب والخطأ، ويقول علماء يعكفون على دراسة سلوك الحيوانات: إن اقتناعهم يتزايد بأن الكائنات الحية من الفئران حتى الثدييات تحكمها منظومة سلوك أخلاقية تمامًا مثل بني البشر، وقد كان الاعتقاد السائد إلى وقت قريب هو أن البشر هم الوحيدون من بين جميع الكائنات الحية الذين تتملكهم عواطف مُعَقَّدة، ويتمتعون بحس أخلاقي.

غير أن أستاذ علم الأحياء بجامعة «كولورادو» الأميركية البروفيسور: «مارك بيكوف» يعتقد أن الأخلاقيات متأصلة في أدمغة الثدييات كافة، وتُعدُّ بمثابة الوِثَاق الاجتماعي الذي يجعل الحيوانات النزَّاعة للعنف والتنافس في الغالب تعيش في قطعان ومجموعات.

وقد جمع من الشواهد من كل أرجاء العالم ما يظهر أن الحيوانات بأنواعها المختلفة تملك إحساسًا متأصلاً بالعدالة، وميلاً للتقمص العاطفي، ونزوعًا لمدِّ يد المساعدة لغيرها من الحيوانات في لحظات المحنة والخطر!

يقول البروفيسور «بيكوف» الذي يعرض تلك الاستنتاجات في كتاب جديد بعنوان: «العدالة الفطرية»: «إن الاعتقاد بأن الآدميين هم دون الكائنات الأخرى من

يتميزون بالأخلاق افتراضٌ قديم، لكنَّ هناك براهين تزداد يومًا بعد يوم تظهر لنا أن الأمر ليس كذلك فعلاً»[٢٩].

نعم لقد كرَّم اللَّه -سبحانه وتعالى- الإنسانَ بالعقل وجعله مناطًا للتكليف بل والتشريف، لكنَّ الذي ينبغي أن نؤكد عليه هنا أن الحيوانات والنباتات بل والجمادات التي اصطلح الناس على تسميتها بأنها مخلوقات غير عاقلة، تملك نوع عقل وإدراك وتمييز يتفاوت فيما بينها، وهو ما يجعلها تفهم كثيرًا مما يجول في هذه الحياة، بل ويحملها على عبادة ربها تبارك وتعالى، ولعلَّ هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فهؤلاء الكفرة أضلُّ من الأنعام؛ لأن الأنعام وإن كانت لا تملك عقلاً كعقل الإنسان وإدراكه وفهمه، إلا أنها مع ذلك تملك عقلاً وإدراكًا وشعورًا تؤدي به حق ربها -تبارك وتعالى-، وتصرِّف فيه شئون حياتها.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

١٠

أمم مثلنا

الحقيقة التي تتجلى لنا من نصوص الوحي وأبحاث العلم أن الحيوانات والنباتات والجمادات ما هي إلا عوالم أخرى لها إدراكها وعقلها ومشاعرها الخاصة بها والتي تناسبها.

إننا بحاجة بعد هذه الأدلة المختلفة إلى إعادة فهمنا لكل ما حولنا من مخلوقات وعوالم، فربما كانت الحقيقة على خلاف ما اعتدناه وألفناه.

إن الحقيقة الكبرى الأولى: التي أطلقها القرآن الكريم وتحدث عنها كثيرًا هي أن هذه العوالم المختلفة من جمادات وحيوانات وطيور وحشرات إنما هي أمم أمثالنا كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فللكون وكائناته قانون ينطق بحكمة الخالق وتدبيره لهذا الكون، وأن هنالك أُمَمًا أخرى تُنَظِّم حياتها وتقيم علاقاتها على أسس ما زلنا نسعى جاهدين في التعرف على أسرارها.. وهذه الحقيقة للأسف يجهلها كثيرٌ من المتعلمين فضلا عن عامة الناس.

وأما الحقيقة الكبرى الثانية فهي أعظم من الأولى، وهي أن هذه العوالم ليست مدركة عاقلة منتظمة وحسب، وإنما هي أمم عابدةٌ ساجدةٌ، خاضعة لربها تبارك وتعالى، فليس الكون كما تراه عين الضلالة عالمًا خربًا مظلمًا أو جنازة هائلة مخيفة تحت تراب هذه الدنيا الفانية! وإنما هو عالم حي ساجد في محراب التعظيم للَّه تعالى، وهذه الحقيقة الكبرى هي مقصود هذا الكتاب.

إن المؤمن الموصول القلب بربه تبارك وتعالى، الموصول بكلامه سبحانه يؤمن أن هذا الكون الرحب العظيم من الفرش إلى العرش يتميز بالحياة والإدراك والنطق والشعور والإيمان والسجود والخضوع والقنوت للَّه تعالى.. هكذا يبدو الكون في كل عوالمه المختلفة من الذرة إلى المجرة، وهكذا أراده اللَّه -سبحانه وتعالى-.

ولذلك تجد المؤمن العابد يشعر بأن كلَّ ما حوله في هذا

الكون حي يتجه معه إلى اللَّه -سبحانه-، وهذا الشعور يمنح القلب إحساسًا عجيبًا، وأُنسًا كبيرًا، وهو يرى أن كل شيء في الكون يسير معه في موكب جليل إلى اللَّه الكبير الأكبر سبحانه وتعالى..

وليعلم علم اليقين أن هذا الكلام ليس خيالاً علميًا، أو نوعًا من أحلام اليقظة أو المنام، أو أنه ضربٌ من المبالغة في تصور وتصوير الأشياء، كلا واللَّه! بل إن هذه الحقائق ربما هي نزر يسير **من الحقيقة المطلقة، وليس كل الحقيقة!** لأن الحقيقة المطلقة بكل تفاصيلها لا يمكن أن يحيط بها إنسانٌ أو يعبِّر عنها قلمٌ أو لسانٌ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

عِبَادَاتُ الكونِ وتَرَانِيمُهُ

١١

إسلام وإيمان

يكشف اللَّه -سبحانه وتعالى- لنا صفحة من صفحات الغيب الذي لا نراه بعيوننا ولا ندركه بعقولنا. . فيحدثنا ويخبرنا - ومن أصدق من اللَّه قيلا، ومن أصدق من اللَّه حديثا- عن حقيقة كبرى في هذا الوجود، فيقول سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

نعم؛ فهذا الكون كله بجميع كائناته؛ علويها وسفليها، سواء كنا نراه أو لا نراه من هذه الحيوانات والجمادات والنباتات، الرطب منها واليابس، الصغير منها والكبير. . قد أسلم واستسلم للَّه -تعالى- طوعًا ومحبةً وإجلالاً، واعترافًا له بالربوبية المطلقة، والألوهية المتفردة، والصفات العلية، في مشهد عظيم مهيب!

إن مشهد إيمان الكون باللَّه -تعالى- مشهدٌ حقيقي وليس مجازيًّا، ولذلك قرن اللَّه -سبحانه وتعالى- بين إيمان وسجود هذه الكائنات على اختلاف أشكالها وأنواعها مع إيمان وسجود البشر سواء بسواء، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨].

«يتدبر القلب هذا النص، فإذا حشدٌ من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك، وإذا حشد من الأفلاك والأجرام مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم، وإذا حشَد من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان. . إذا بتلك الحشود كلها في موكب خاشع تسجد كلها للَّه، وتتجه إليه وحده دون سواه، تتجه إليه وحده في وحدة واتساق، إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرق: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾، فيبدو هذا الإنسان عجيبًا في ذلك الموكب المتناسق»(٣٠).

واللَّه لو قُدِّرَ لعيوننا أن ترى الحقائق الغيبية، ولآذاننا أن تسمع وتعقل الأصوات الخفية على وجه الحقيقة لارتجف القلب عندها إجلالاً وتعظيمًا للَّه -تعالى-، وكيف لا

يرتجف وهو يرى هذا الجمع الهائل من العوالم والكائنات وهي مؤمنة خاشعة ساجدة للَّه -تعالى-، وكأن الكون كله في محراب العبادة للَّه تعالى!

لقد عايَن بعض الصحابة ﷺ شيئًا من هذه العجائب والغرائب الدالة على إيمان الكون وكائناته للَّه تعالى فتعجبوا وآمنوا، وأسلموا واستسلموا، يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «كنا مع النبي ﷺ في سفر فأقبل أعرابي، فلما دنا منه قال رسول اللَّه ﷺ: «أين تريد؟» قال: إلى أهلي. قال: «هل لك إلى خير؟». قال: ما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله؟» قال: هل من شاهد على ما تقول؟ قال ﷺ: «هَذِهِ الشَّجَرَةُ». فدعاها رسول اللَّه ﷺ وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تَخُدُّ[٣١] الأرض خدًّا حتى كانت بين يديه، فاستشهدها ثلاثًا، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها»[٣٢].

سبحان اللَّه! شجرةٌ تشهد على رؤوس الأشهاد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه! إنها صورة من صور الغيب التي كشفها اللَّه -سبحانه وتعالى- لبعض أصحاب نبيه ﷺ كرامةً مِن اللَّه لهم، وليزادوا إيمانًا مع إيمانهم، ويقينًا مع يقينهم، ولو شاء اللَّه لكشف لنا من ذلك

الشيء الكثير، ولكنه سبحانه أخفاه عنا لحكمةِ التكليف والاختبار والابتلاء.

إن الحقيقة الكبرى التي ينبغي أن نؤمن بها هي أن الكون جميعه يبدو في طاعة للَّه -سبحانه وتعالى-، فكل مَن في السماوات والأرض قد أسلم وآمن باللَّه تعالى.. وأما هؤلاء الذي يخرجون عن طاعة اللَّه فيتكبرون عن توحيد اللَّه فهم في الحقيقة يشذون من بين هذا الوجود الهائل، وهم وحدهم من بين هذا الخلق العظيم ينحرفون عن نظام الوجود الكبير، فعملهم نشاز في الوجود، وسعيهم ضلال في الدنيا والآخرة.

ولذلك لا عجب إن علمنا أن الكون كله بكائناته وعجماواته وجباله وبحاره وأرضه وسمائه ينتفض ويغضب عندما يسمع أو يرى ما يكون من كلام وفعل أهل الشرك والإلحاد، وذلك إعظامًا للَّه وإجلالاً، وتقديسًا للَّه وتعظيمًا؛ لأنهم مخلوقات مفطوراتٌ على توحيد اللَّه -سبحانه-، فهو واحد أحد، فرد صمد، لا شريك له ولا ندّ، ولا صاحبة له ولا ولد، سبحانه من إله عظيم!

فتأمل هذا المشهد العظيم الذي يخبرنا الحق -سبحانه وتعالى- عنه، فيقول عن أهل الشرك والإلحاد: ﴿وَقَالُوا

﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ فماذا كان ردت فعل الكون وكائناته على ذلك: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٨٩ - ٩٣].

حدثٌ عظيم ومشهد هائلٌ!

يغضب هذا الكون غضبة الصدق من شقوة الإنسان وغيه البعيد وتصوراته المناقضة لأصل الإيمان وجذر الفطرة في هذا الوجود كله!

إن كل مخلوق شاهدٌ شهادةً لا تتلعثم أن الذي خلقه ففطره فأوجده واحد أحد لا شريك له، قد تنزه عن الشبيه والمثيل، وتقدس في عليائه من خرافات الوثنية والضلال المحترق والخرافات البشرية التي ارتضاها بعضَ الناس اعتقادًا يؤمن به ويستقيل من عقله ليعتنقه!

يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثَّقَلَيْن، وكادت أن تزول منه لعظمة اللَّه»(٣٣).

إنه لا حب بغير غيرة، ولا إيمان بلا محبة توجب على صاحبها حب ما يحب سيده وخالقه وبارئه، وبغض وكراهة

ما يكرهه وينسب له الزور والكذب والأباطيل، ولا باطل أعظم من اعتقاد الشريك للَّه تعالى!

وهكذا انتفضت الغَيْرَة على توحيد اللَّه في قلب طائر صغير، ففزع لما رآى الشرك والمشركين ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٣- ٢٦]، فسبحان اللَّه! تتحرك الغيرة على التوحيد في قلب طير من الطيور، ويأبى أن يرى أحدًا يسجد لغير اللَّه، ويستعظم ذلك وينكره؛ لأنه يعلم أن الشرك شؤم ووبال، وخزي وعار، يلحق أذاه كل شيء في الوجود، فكيف يسجدون لغير اللَّه! وكيف تخضع رؤوسهم وتنحني رقابهم أمام المخلوقين!

إن في اتخاذ الناس آلهةً من المخلوقين ذلةً ومهانةً للإنسان! لأن الخضوع والذلة والمسكنة لا تكون من مخلوق إلى مخلوق، فهذا انتقاص من حريته وعافية قلبه واستقامة عقله! ولا أحد يكون حرا مثل الذي عبد اللَّه تعالى فكان حرا من الأصنام والأوثان والخرافات

والضلالات والاعتقادات البالية والأساطير الفانية التي اختطفت العقل البشري من مسار الحرية الذي لا يليق بالإنسان غيره: وهو أن لا يكون عبدا لمخلوقٍ في التصور والتوكل والخضوع والذلة والخوف!

بل يرتفع الرأس ويشرئب العنق وتنتصب القامة أمام المخلوقين، فالجبهة لا تذل إلا للَّه، والظهر لا ينحني إلا لواهب الحياة سبحانه.

* الإنسان واستكباره عن شرع اللَّه:

كل شيء في هذا الكون يقف خاضعًا متذللًا، معترفًا بفضله سبحانه..

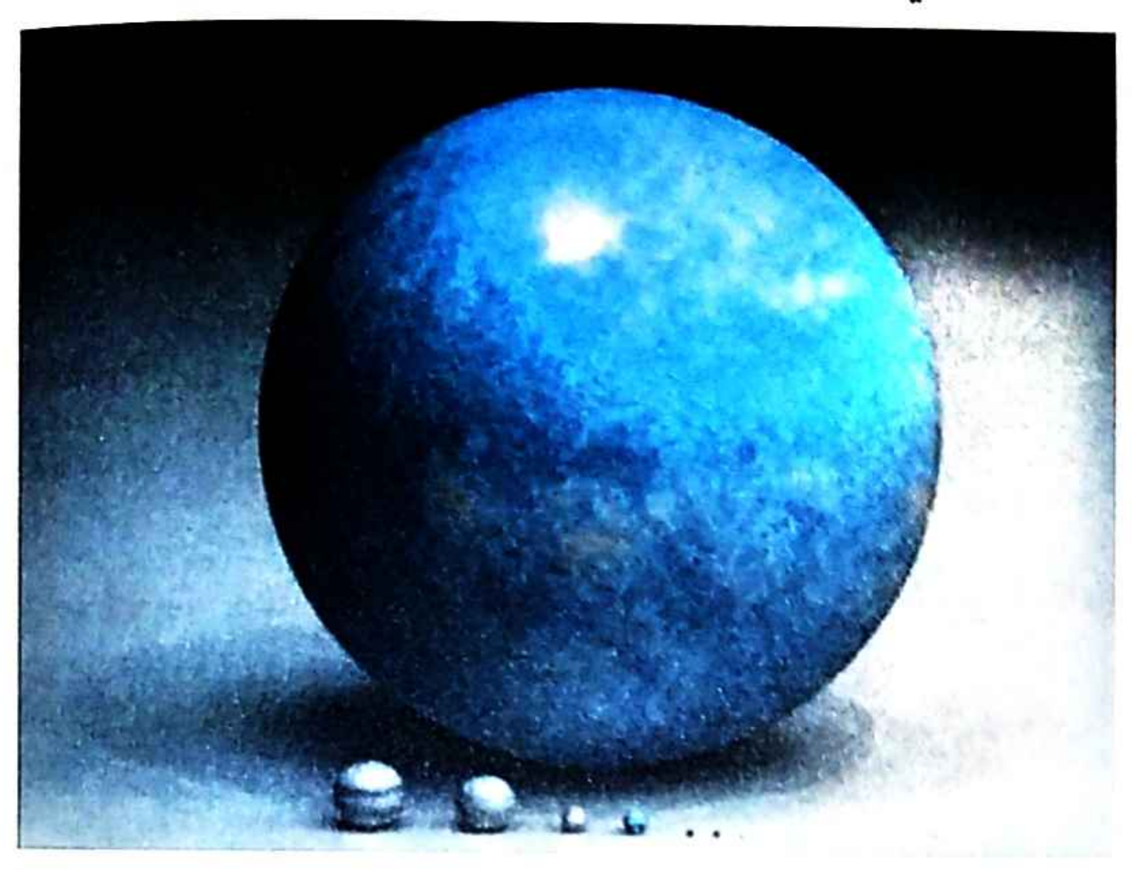
هناك مخلوق صغير في هذا الكون الفسيح العظيم حاله ربما يكون مختلفًا..

هذا المخلوق خُلِقَ من نطفة حقيرة فإذا هو خصيم مبين!

الكون كله في انسجام تام إلا هذا الخصيم المبين..

إن هذا الخصيم المبين هو الإنسان العاصي للَّه -عز وجل-، الجاحد لأمر ربه -تبارك وتعالى-!

تأمل معي هذه الصورة:



هل تستطيع أن تتخيل ما الذي تحتويه الصورة السابقة؟!

إنها تحوي مشهدًا عظيمًا مهيبًا..

هل رأيت تلك النقطة الصغيرة المشار إليها بالسهم..

في هذه النقطة الصغيرة هناك يعيش الإنسان (الخصيم المبين)..

تمهل قليلاً.. ليست النقطة المشار إليها سابقًا هي الإنسان..

النقطة المشار إليها هي الأرض التي يعيش عليها الإنسان..

انتظر.. هذه الأرض بالنسبة للشمس فقط..

الشمس نجم واحد من ملايين النجوم المتناثرة في مجرتنا..

والكون يحوي ملايين أو ربما مليارات المجرات..

يقول العلماء الفلك: «إن مجرة درب التبانة -وهي مجرة متوسطة الحجم!- يحتاج قطعها إلى نحو مائة ألف سنة ضوئية! لذا فإن مركبة فضائية ستحتاج إلى مائتي ألف سنة لتسافر من طرف المجرة إلى طرفها الآخر، وتعود إذا كانت تسير بسرعة الضوء»[٣٤].

ويقول علماء الفيزياء الكونية: «إن هذا الكون كُلَّه يُشبه في الحقيقة شاطئًا أو صحراء مليئةً بالرمل، وأنَّ كل حبة رمل قد تكون كنجم في الكون أو ربما في مكان مجرة، وأن الأرض ما هي إلا حبة رمل في هذه الصحراء»!

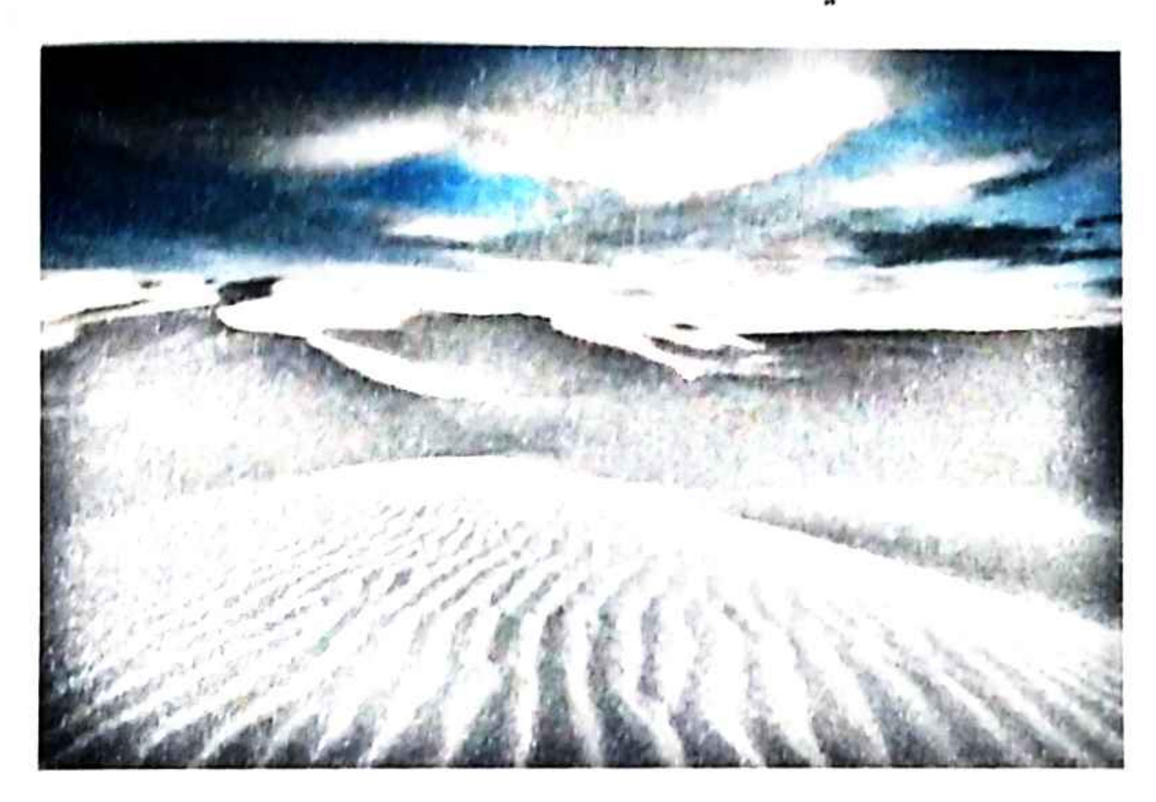
ويقول النبي ﷺ: «ما السماوات السبع في الكُرْسِيِّ إلا كحَلْقةٍ[٣٥] بأرضٍ فلاةٍ[٣٦]، وفضلُ العرش على الكرسي كفضْل تلك الفَلاة على تلك الحلقة»[٣٧].

هل تأملت الحديث؟ الكون كله بمجراته وأجرامه مجموع إليه السماوات العلى كلها بالنسبة لكرسي الرحمن -تعالى- كحلقة رُميت في فلاة..!

هل تخيلت..؟!

كحلقة خاتم رُميت في صحراء شاسعة واسعة،

والكرسي على عِظم خلقه وحجمه إلا أنه بالنسبة للعرش كحلقة رُمِيَت في فلاة!



هنا نقف لنعود قليلاً إلى الوراء..

تخيل معي هذه الحقائق:

حجم الإنسان بالنسبة للأرض؟

وحجم الأرض بالنسبة للشمس؟

وحجم الشمس بالنسبة لمجرتنا؟

وحجم مجرتنا بالنسبة للكون؟

وحجم الكون مع السماوات السبع بالنسبة لكرسي الرحمن؟

وحجم الكرسي بالنسبة لعرش الرحمن!!

ثم المقارنة الكبرى التي لا تحتمل أن تفكر بحجم

الإنسان المنكر لربه تبارك وتعالى بالنسبة لعرش الرحمن سبحانه؟

هنا لا بد للقلم أن يقف! ولا بد للعقل أن يندهش! ولا بد للقلب أن يرتجف!

وصدق اللَّه إذ يقول: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

نعم واللَّه، خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الإنسان، بل والناس جميعًا، ثم يأتي هذا الإنسان الجاهل الضعيف المخلوق من نطفة حقيرة صغيرة لا قيمة لها.. يقف معاندًا لربه -تبارك وتعالى-، مستعليًا على شرعه، تاركًا لأوامره، متكبرًا عن السجود لربه، متعللاً بانشغالاته، مسوِّفًا متكاسلاً..

يا اللَّه.. ما أعظمك يا ربنا، وما أحلمك علينا، وما أصبرك على أذى الكثيرين منا!

يغتر الواحد منا ربما بماله أو جاهه أو صحته أو قوته.. فيتكبر على أوامر خالقه..

وتبقى الحقيقة الكبرى أن هذا الكون الجميل، بأجرامه وذراته، بمجراته وإلكتروناته، قد سبقنا إلى اللَّه -تعالى-، فهو مؤمن مسلم طائع لربه، فعلام يعاند الإنسان فطرته، ويتنكب لخالقه.. ومصيره إلى اللَّه تعالى.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

عجبًا لأناس كانت السماوات والأرض أفقه منهم وأعقل عندما استجابت لمنهج اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

* * * * *

١٢

صلاة وسجود

من الحقائق الجلية والمعارف الرفيعة التي تضمنها القرآن الكريم ولم تسمع أذن الدهر بمثلها هو إخباره أن العَالَمَ كلَّه من الذرة إلى المجرة يسير في نسَقٍ من العبادة عجيب. . الكواكب والمجرات، الأرض والسماوات، الحيوانات والعجماوات، النباتات والغابات، الجبال والجمادات، كلها في سجود وصلاة وخضوع وقنوت[٣٨] للَّه - سبحانه تعالى- لا يشذ عن ذلك إلا كفرة الجن والإنس ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

يا اللّه.. هل تدبرت الآية حق التدبر؟!

قف عندها.. أعد تلاوتها.. تأمل كلماتها..

اجعل قلبك يعيش مع مشهدها.. ما هذه الحشود..

حشدٌ من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك.

حشدٌ من الأفلاك والأجرام مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم.

حشدٌ من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي نعيش عليها.

تلك الحشود الخاشعة في موكب الإجلال تسجد كلها للّه سبحانه وتعالى وتصلي.

تتجه إلى اللّه وحده دون سواه في وحدة واتساق.

إنه بحق مشهد عظيم لمن تأمله وتدبره جيدًا. كأن الكون قد أصبح كله مسجدًا تُقام فيه الشعائر والعبادات، كلُّ مخلوقٍ بطريقته الخاصة، وبِلُغته الخاصة، يسجد في محراب الكون الفسيح وله خشوع عجيب!

عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يومًا: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس»؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: «إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مُسْتَقَرِّها تحت العرش، فتخرُّ ساجدةً، ولا تزال كذلك حتى يُقال لها: ارتفعي؛ ارجعي من حيث جئتِ، فترجع فتصبح طالعةً من

مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخرُّ ساجدةً، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها، ثم تجرى لا يستنكر الناس منها شيئًا حتى تنتهي إلى مستقرها، ذاك تحت العرش فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعةً من مغربك، فتصبح طالعةً من مغربها»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]»(٣٩).

وهذا السجود الذي أخبر عنه ﷺ ليس خاصًا بالشمس وحدها، بل هو متعلق بكل الكائنات والمخلوقات، قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما في السماء نجمٌ ولا شمسٌ ولا قمرٌ إلا يقع للَّه ساجدًا حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يُؤذَنَ له، فيأخذُ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه».

ويقول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا زالت الشمس سجد كلُّ شيء للَّه عز وجل».

وقال: «الثوب يسجد».

ويقول الضَّحَّاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا فاءَ الفَيْءُ لم يبق شيء من دابَّةٍ ولا طائرٍ إلا خرَّ للَّه ساجدًا».

إن جميع الكائنات والمخلوقات مهما علت في السماء،

أو دَنَتْ في الأرض، مهما كبر حجمها أو صغر جرمها، تسجد الله -سبحانه وتعالى- قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، فـ «النجم» و«الشجر» ما هما إلا مثالان يدلان على اتجاه الكون كله بالعبادة والسجود والخضوع لله تعالى[٤٠].

وهذا السجود كما يعبِّر القرآن الكريم عنه سجود شامل، يشمل سجود الشخوص وسجود الظلال:

أما سجود الشخوص والذوات: فقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨]، كما مر معنا سابقا.

وأما سجود الظلال: فقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨- ٥٠]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، فهذان نصان واضحان صريحان على أن الظلال تسجد لله سبحانه وتعالى كما تسجد الأجساد والأجسام سواء بسواء، يقول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«سجود كل شيءٍ فَيْؤُه، وسجود الجبال فَيْؤُها».

إن كل ما نراه من ظلال في هذا الوجود ليس كما يُظَن أنه أمر طبعي أو خيال وهمي يحدث عند سقوط الضوء على جسم ما دون تدبير إلهي وسلطان رباني! كلا[٤١]، إن الأمر أبعد من ذلك، فهي وإن كانت انعكاسات للضوء إلا أن اللَّه -سبحانه وتعالى- جعل لها فهمًا وإدراكًا خاصًا تتعبد به للَّه -تعالى- فتسجد له -سبحانه-.

كيفية سجود وصلاة الكائنات للَّه تعالى؟

إن سجود وصلاة هذه الكائنات كما قلنا حقيقي، ولكنه في ذات الوقت يختلف عن سجودنا وصلاتنا المعروفتين المعهودتين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يجب أن يكون سجود كل شيء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء، ووضع جبهة في رأس مدور على التراب، فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان»[٤٢].

وإذا كان سجود الناس يختلف حسب دينهم وطقوسهم، فاختلاف سجود الكائنات من باب أولى وأحرى، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من الأمم مَن يركع ولا يسجد وذلك سجودها.. ومنهم مَن يسجد على جنب كاليهود،

فالسجود اسم جنس، ولكن لما شاع سجود الآدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن أن هذا هو سجود كل أحد»(٤٣).

بل إن سجود المسلم نفسه يختلف باختلاف أحواله.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: «هذه الجمادات والنباتات والحيوانات تسجد لله -تعالى-، لكن سجودها يختلف عن سجودنا، فالإنسان المسلم سجوده يكون بجبهته على الأرض، أما بقية الكائنات فسجودها كلٌّ بحسبه؛ إذ كل كائن له طريقة خاصة له بالسجود، بل إن سجود الإنسان الصحيح غير سجود الإنسان المريض الذي يسجد وهو على الفراش، فالسجود يختلف بهذه الصورة في الجنس الواحد حَسْب حالة وقدرة وطاقة الإنسان، فلماذا نستبعد أن يكون لكل جنس سجوده الحقيقي الخاص به، والذي يتناسب مع طبيعته؟»(٤٤).

وهكذا الأمر في صلاة الكون وكائناته: فلكل شيء في الوجود صلاته التي تناسبه كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]، فالتنوين في قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ﴾ دالٌّ على التعميم، وهذه الصلاة ليس بالضرورة أن يكون فيها

ركوع وسجود، وتكبيرة إحرام وتَشَهُّد وتسليمتان، وما إلى ذلك من صفة صلاة البشر المسلمين، وإنما هي صلاة مخصوصة تعلمها الكائنات ويعملها اللّٰه سبحانه، ولذلك ختم اللّٰه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]، قال سفيان: «للطير صلاةٌ ليس فيها ركوع ولا سجود»، وقيل: «إن ضربها بأجنحتها صلاة، وإن أصواتها تسبيح»(٤٥).

فاسجد واقترب!

فما أقبح ذلك الذي حمل أتربته وغباره وابتعد عن سجادة الصلاة التي هي مساحة الحياة في هذه الدنيا، وبوابة النور التي تحمل الإنسان إلى منازل القرب وبهجة المناجاة الإلهية!

إن مَن لم يشارك الكون صلاته وسجوده الآن.. تمنى في الآخرة الصلاة والسجود وأنى له ذلك ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢- ٤٣].

إنك إن لم تسجد للّٰه -تعالى- فاعلم أن كل ما فيك يسجد للّٰه -تعالى- شئت أم أبيت، يقول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمّا ظلُّك فسَجَد لربك، وأما أنت فلا تسجد

له؟! بئسما صنعت».

ويقول مجاهد رحمه الله: «ظلُّ الكافر يصلي وهو لا يصلي».

وقيل: «ظلُّ كل شيء يسجد لله، سواء كان ذلك ساجدًا أم لا»(٤٦).

قال بعض العلماء: «إن الجبال والطيور كانت تصلي مع داود عليه السلام إذا صلى».

فإياك أن تكون ممن ألهَتْه دنياه وتجبرُه وتكبرُه أو حتى تكاسله عن عبادة مولاه.

إياك أن تكون الجمادات والعجماوات أحسن منك حالاً ومآلاً.

إياك أن تكون من المهانين بترك السجود ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

إياك وتسويفات الشيطان وتخذيله وتثبيطه ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

قم صلِّ، واركع واخضع، وانسجم مع الكون الجميل..

كل سجدة هنا إنما هي رِفْعَة وعزة، وقُرْب ورفعة هناك.. في الدار الآخرة.

فالكون بكل ما فيه من مخلوقات عابدٌ ساجد خاضع

لربه -تبارك وتعالى- مُطْرِقٌ بالذل والخشية من رب العالمين سبحانه وبحمده، إلا ذلك الإنسان المتكبر الذي أوصد قلبه، فنأى عن نور اللَّه تعالى، وتعبد في معبد الشهوات والشبهات والفراغ والوهم، ناسيًا كل ما يكون به حيا، حريصا على موت نفسه؛ فهو يابس جامد مغلق كأنه قطعة صخرية في صحراء موحشة ليس فيها غير صوت الرياح النادبة..

يجلس منبوذًا... في روحه آثار الوهن والضعف والشرود والتيه!

يذكرني هذا مشهدًا رأيته:

ففي «The sunset limited» وهو فيلم من مشهد واحد لحوار ممتد بين شيطانين من شياطين هوليود: صمويل جاكسون، وتوم لي جونز..

يلبس جونز «البروفيسور اللاهوتي» بشفته اليابسة المُقفلة على زفرات الحيرة، وعينه الجنائزية المنطفئة بموت روحه، وأنفاسه الهامدة الرمادية، يلبس إهابَ الملحد الذي مات في قلبه وروحه وعينه وملامح وجهه معاني الحياة!

ووقف على ربوة الوحشة يطالع عالمًا مهدوما متآكلاً تهاوى فيه كل شيء، وليس فيه إلا الفراغ المسكون

بالعدم، وبقي هو كأن فيه روح غراب بين جثث الموتى!

هكذا هو العالم بدون «اللَّه»! يتساقط فيه كل شيء، ولا يقيمه حيًا في النفس إلا الإيمان باللَّه تبارك وتعالى.

ومتى ذهب هذا الإيمان ذهب معه الوجود والإنسان، وفنيت مادة السعادة في النفس، وتطاير العالم رمادًا بائسًا في خرابات الضنك!

ومن هنا تعلم بعض ما في الصلاة من أسرار، وأنها مَجْلَى الإيمان السامي، وقد سُمِّيت بـ عمود الدين؛ لأنها عنوان فقر العالم وفَاقَتِه وضرورته إلى ربه تبارك اسمه.

فهي من مباني الإسلام الخمسة، وهن خمس صلوات بهنَّ قِوام اليوم، فمتى أصابهن الخلل انهدم نظام اليوم، فانهدم العمر، وأتى الإنسان يوم القيامة عاضًا أصابع الندم يقول بزفرات الحسرة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾!

* * * * *

١٣

مِسْبَحَةٌ علوية

من عبادات الكون وأكثرها ورودًا في القرآن الكريم عبادةُ تسبيح اللَّه -تعالى-، وقد افتُتحت خمس سور من القرآن الكريم بذكر تسبيح «ما في السماوات وما في الأرض»، وهي قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، وقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١] و[الصف: ١]، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١]، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

فالسماوات والأرض وما فيها من أفلاك، وكواكب، وبروج، وجبال، ووهاد، وفجاج، وصخور وغير ذلك مما لا يحصيه إلا اللَّه تسبح اللَّه عز وجل.

وتسبيح اللَّه -تعالى- شعبةٌ من شُعَب الإيمان، بل هو الشُّعبة التي ترجع إليها كل شعب الإيمان؛ لأن التسبيح هو: «تنزيه اللَّه عن كل ما لا يليق، مع تمجيده وحمده واستحضار معاني صفاته الحسنى»، والإيمان في حقيقته يرجع إلى ذلك كله.

من هنا كان تسبيح الكون وكائناته متحركها وساكنها، ناطقها وصامتها، كبيرها وصغيرها دليلاً على إيمانها باللَّه ومعرفتها به -سبحانه- معرفة حقيقية تحملها على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من النِّدِّ والشبيه والنظير، وأيِّ نقصٍ موهوم، مع حمده سبحانه في ذات الوقت على جميل صفاته وفعاله؛ لأنه الرب الإله الذي لا إله إلا هو، الحي الذي لا يموت ولا ينام ولا ينبغي له أن ينام، القيوم الذي استغنى عن كل ما سواه، وما سواه مفتقر إليه، بديع السماوات والأرض الذي أحسن كل شيء خلقه، الرحمن الرحيم بعباده وخلقه، الملك العلام القهار الذي قهَر كل شيء، وذلَّ له كل شيء، وأذعن له كل شيء.

تسبح له السماوات بما فيها من نجوم سابحات، وكواكب نيرات.

تسبح له الأرض بما حوت من مياه جاريات، وشوامخ راسيات.

تسبح له الحيتان في البحار الزاخرات، والوحوش في الفلوات.

تسبح له الرياح الذاريات والطيور الصَّفَّات والخيول الصافنات.

تسبح له الأشجار في الغابات، والنباتات والجمادات.

كل شيء يسبح ولكن:

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال عمر رضي الله عنه: «لا تلطموا وجوه الدواب؛ فإن كل شيء يسبح بحمده».

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: «الزرع يسبح بحمده وأجره لصاحبه، والثوب يسبِّح».

وقال عكرمة: «الأسطوانة(٤٧) تسبح، والشجرة تسبِّح».

وقال: «لا يَعِيبنّ أحدكم دابته ولا ثوبه؛ فإن كل شيء يسبح بحمده».

ويقول الحسن رحمه الله: «التراب يُسَبِّح، فإذا بُنِي به الحائط سبَّح»، ويقول: «لولا ما غُمِّي عليكم من تسبيح ما معكم في البيوت ما تقارَرْتم»، يعني ما استقر للإنسان عيش!

وقال أبو غالب الشيباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صوت البحر تسبيحه، وأمواجه صلاته».

وقال بعض السلف: «إن صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه»(٤٨).

«ومما يلفت النظر أن التسبيح الذي في معرض العموم كله في القرآن مسند إلى «ما» دون «من» إلا في موضع واحد، هو قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، وهذا شاهد على شمول «ما» وعمومها المتقدم ذكرها؛ لأنه سبحانه أسند التسبيح أولا إلى السماوات السبع والأرض صراحة بذواتهن، وهن من غير العقلاء بما في كل منهن من أفلاك، وكواكب، وبروج، أو جبال، ووهاد، وفجاج، ثم عطف على غير العقلاء بصيغة «من» الخاصة بالعقلاء فقال: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾، وإن كانت «من»... وبهذا شمل إسناد التسبيح لكل شيء في نطاق السماوات والأرض عاقل، وغير عاقل، وقد أكد هذا الشمول بصريح قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، وكلمة «شيء» أعم العمومات، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فشملت السماوات والأرض، والملائكة، والإنس، والجن، والطير، والحيوان، والنبات، والشجر، والمدر، وكل

مخلوق للّه تعالى»[٤٩].

احذر أن تكون أحد الصنفين!

كل المخلوقات على اختلاف أشكالها وأحجامها وأماكنها تسبِّح اللّه -تعالى- غير صنفين من المخلوقات، فقد جاء في الحديث الصحيح من حديث عمرو بن عبسة ﷺ أنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ما تستَقِلُّ الشمس فيبقى شيء من خلق اللّه إلا سبَّح اللّه بحمده إلا ما كان من الشياطين وأغبياء بني آدم»[٥٠]، أي: أنه عندما تشرق الشمس وترتفع وتتعالى قليلاً لا يبقى في هذه الساعة من الإشراق شيءٌ إلا سبَّح بحمد اللّه -تعالى- فعلاً إلا ما كان من الشياطين وأغبياء بني آدم قليلي الفطنة والذكاء، فاحذر أن تكون منهم!

وأي غباءٍ أعظم من غباء من قطع نفسه عن رحمة اللّه تعالى، وأنوار ذكره، وبركة تسبيحه سبحانه وبحمده!

قد سبَّحت الكائنات بحمده فملأ الكون تسبيحها، سبحت له السماوات السبع وأملاكها، والنجوم وأفلاكها، والأرض وسكانها، والبحور وحيتانها، والسادات وعبيدها، والأمطار ورعودها، والملوك ومماليكها، والأشجار وثمارها، والديار وأطلالها،

والأسود وأشبالها.

سبح له سواد الليل وعتمة الظلام، وضحى النهار، والحصى المتناثر، والجبل الراسخ، وغربة الشفق، وزُرْقَة السماء، ونثار الموج، وهمهمات النسيم، وعطر الياسمين وعبق الورد واخضرار الأشجار!

لفتة:

ليس التسبيح مجرد ترديد لفظ «سبحان اللَّه» فقط! وإنما هو في حقيقته التمجيد والتنزيه، واستحضار معاني الصفات الحسنى للَّه، والحياة بين إشعاعاتها وفيوضاتها وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بالقلب والشعور.

ولذلك كثر في القرآن الكريم التوجيه إلى ذِكْر اللَّه -سبحانه- وتسبيحه في كل الأوقات والأزمان، وكأن الكون كله مسبحة تذكير لقلب الإنسان ترققه وتنيره وتنهض به وتقيمه إلى صراط العبودية المنير.. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩- ٤٠]، ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٢٥- ٢٦].

إن تسبيح اللَّه -تعالى- وحمده زادٌ للمؤمن وطريق

موصِلٌ إلى السعادة والرضى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

فالتسبيح يلبس القلب ثوب السكينة ويغمر النفس ببركات الرضا وأنس المعية الخاصة من رب العالمين، فيها التسديد والهداية والتوفيق والرعاية والمعافاة والعناية.. فكيف لا يكون من وراء ذلك كله رضا القلب وسعادته؟!

إن العبد كلما ارتقى في مجال العبادة، ارتقى في مجال تسبيحه للَّه -جل وعلا-، فالملائكة هم أكثر خلق اللَّه تسبيحًا له وتنزيهًا له، وذلك لقربهم العلوي من رب العالمين، قال -تعالى- عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، والذين عند اللَّه هم الملائكة، وأعلاهم حملة العرش قال -تعالى- عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[الزمر: ٧٥].

وهكذا الأنبياء، وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ، وقد قال -تعالى- له: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الذاريات: ٤٨- ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، وقال -تعالى- لرسوله معلمًا إياه بدنو أجله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١- ٣]، وذلك ليكون ختام حياته كبدء رسالته تسبيحًا بحمد اللَّه -جل وعلا-.

إن المؤمن إذا ما مَارَسَ حياته وعباداته وجد نفسه مرتبطًا مع عالم كبير كبير لا يعلم حجمه ومداه إلا اللَّه -سبحانه-، يتوجه مع هذا الوجود العظيم نحو ربه تبارك وتعالى.. فهو يؤمن بأنه يعيش في كون يسبِّح اللَّه، سماواته وأرضه، برّه وبحره، جباله وسهوله، جماده وحيواناته، إنسه وجنه.

فأيُّ راحة؟! وأي سَعة؟! وأيُّ أُنْس؟! وأي ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح؟!

سُبُّوح قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والرُّوح!

كان مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ -تعالى- يقول: «تباركتَ يا ربَّ العالمين! يسبحك الليل والنهار، ويسبحك الثلج، ويسبحك الرعد، ويسبحك المطر، ويسبحك الندى، وتسبح لك السماء، وتسبح لك الأرض، وتسبحك النجوم، وتسبحك جنودك كلهم، تباركتْ أسماؤُك المباركة المقدسة التي لك بهن نُسَبِّح ونُقَدِّس ونُهَلِّل، لا إله إلا أنت»(٥١).

* * * * *

١٤

«..وأنَّ محمدًا رسول اللَّه»

سيدنا محمد ﷺ إمام العظماء، وأشرف الشرفاء، وسيد النبلاء، سراج الدنيا وضياؤها، وبهجة الأرض وبهاؤها، أحسن الناس منظرًا، وأجمل الخلق مظهرًا، وأطهر البرية مخبرًا.

خيرُ مَن مشى على الأرض، وخير من طلعت عليه الشمس، بل هو شمس الدنيا وضياؤها، أشرقت شمسه فعمت بنورها الكون كله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥- ٤٦].

أحبه الكون كله بكواكبه وأجرامه، وأرضه وسماواته، وجماداته وعجماواته، ونباتاته وأشجاره، وأنهاره وبحاره، فلا تسل عن حبها وعن سعادتها وبهجتها!

وكيف لا يحبه الكون وقد بعثه ربُّه رحمةً وسلامًا،

للإنس والجن، للنبات والجماد والحيوان، بل للكون كله ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

كيف لا يحبه الكون وقد أحبه ربه العليم الخبير، واختاره من بين خلقه سيدًا للمرسلين، وخاتمًا للنبيين؟!

كيف لا يحبه الكون وهو أكرم الناس خلقًا، وأصدقهم لهجة، وأوفاهم عهدًا، ولا يقول إلا حقًّا، ولا يَعِدُ إلا صدقًا؟!

كيف لا يحبه الكون وقد امتنَّ اللَّه به على العالمين، فأنار القلوب بعد ظلمتها، وأحياها بعد مواتها، وهداها بعد ضلالتها، وأسعدها بعد شقوتها، فكان ﷺ الصباح لها بعد ليل طويل مظلم بهيم.

إيمان الكون بالنبي ﷺ:

صح عن جابر رضي الله عنه أنه قال: «أقبلنا مع رسول اللَّه ﷺ حتى دُفِعْنَا إلى حائطٍ في بني النجار، فإذا فيه جَمَلٌ لا يدخل الحائطَ أحدٌ إلا شدَّ عليه، فذكروا ذلك للنبي ﷺ؛ فأتاه النبي ﷺ، فدعاه فجاء واضعًا مِشْفَرَه على الأرض حتى بَرَكَ بين يدي النبي ﷺ، فقال: «هاتوا خِطَامًا» فخَطَمه ودفعه إلى صاحبه، ثم التفت فقال: «إنه ليس شيءٌ بين السماء والأرض إلا ويعلم أني رسولُ اللَّه

إلا عاصي الجن والإنس»[٥٢].

يا اللَّه.. «ليس من شيء بين السماء والأرض» فالسماء ونجومها، والكواكب وأفلاكها، والبروق وأضواؤها، والرعود وأصواتها، والحيتان ومحيطاتها، والأنهار ومجاريها، والصحاري ورمالها، والأشجار وأوراقها، والزهور وأوراقها، والطيور وأعشاشها، والوحوش وأوكارها، وما علمنا وما لم نعلم.. كلٌّ يؤمن برسالة النبي ﷺ ويُصَدِّقه إلا ما يكون من كفَرة الإنس والجن!

إخبار الذئب بنبوته ﷺ:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذَنَبه، قال: ألا تتقي اللَّه! تنزع مني رزقًا ساقه اللَّه إليَّ؟ فقال: «يا عجبي ذئب مُقْعٍ على ذَنَبه يكلمني كلام الإنس»؟!

فقال الذئب: «ألا أخبرك بأعجبَ من ذلك! محمد ﷺ بيثربَ يُخْبِرُ الناسَ بأنباء ما قد سبق»!

قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها-يعني جمعها- إلى زاويةٍ من زواياها، ثم أتى رسول اللَّه ﷺ فأخبره، فأمر رسول اللَّه ﷺ فنُودي

الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: «أخبرهم»، «فأخبرهم»[٥٣].

سبحان الله!! ذئب يُخبِرُ بالنبي ﷺ ويدلُّ عليه وعلى دعوته، ينصح ويدعو إلى الإيمان بالنبي ﷺ، فماذا صنعنا نحن؟!

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت
إلا وحبُّك مقرونٌ بأنفاسي
ولا جلستُ إلى قومٍ أحدِّثُهم
إلا وأنت حديثي بين جُلّاسي

تحرك لفرط حبّه ﷺ الجمادُ والسواكن!

فحنَّ إِلَيْهِ الْجذع وبكا، وشكى إليه الجمل ما يجد من قسوة وأسى، وسبَّح بين يديه الحجر والْحَصَى، وتزلزل الْجَبَل فاهتز من فرط الهوى، كلٌّ أفصح عَن حبه بحاله ولغاته!!

كلٌّ كنَى عن شوقِه بلغاتِهِ
ولربّما أبكَى الفصيحَ الأعجمُ

فهاكَ قطوفا من أعجب الحب والود.. لم يسمع التاريخ بمثلها:

جَمَلٌ يشكو ويبكي!

عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: «دخل ﷺ حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبيَّ ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ، فمسح ذِفْرَاه -يعني ما خلف أذنيه- فسكت، فقال: «مَنْ ربُّ هذا الجمل؟!»، فجاء فتى من الأنصار، فقال: «ألا تتقي اللَّه في هذه البهيمة التي ملكك اللَّه إياها؟! فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتدئبه»(٥٤).

سبحان اللَّه.. الجمل لما رأى النبي ﷺ شكى وبكى مما يجد من ظلم وأذى..

شكوى الحُمَرَة!

عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفر، ومررنا بشجرة فيها فَرْخَا حُمَّرَةٍ - يعني: أولادها -، فأخذناهما، قال: فجاءت الحُمَّرَة إلى رسول اللَّه ﷺ وهي تصيح، فقال النبي ﷺ: مَن فَجَع هذه بفرخيها؟ قال: فقلنا: نحن، قال: فردّهما»(٥٥).

جاءت إليك حمامة مشتاقة
تشكو إليك بقلب صبٍّ واجفِ
من أخبر الورقاء أن مقامكم
حَرَمٌ، وأنك منزلٌ للخائفِ؟!

أدبٌ جمٌّ من الحيوان!

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان لآل رسول الله ﷺ وَحْشٌ فكان إذا خرج رسول اللَّه ﷺ اشتد ولعب في البيت، فإذا دخل رسول اللَّه ﷺ سكن فلم يتحرك؛ كراهيةَ أن يؤذيه»(٥٦).

لي فيك حبٌّ ليس فيه تملقٌ
أملاه دينٌ ليس فيه تكلفُ

تسابقٌ إلى الموت بين يديه الشريفتين!

عن عبد اللَّه بن قرط أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أعظم الأيام عند اللَّه يوم النحر، ثم يوم القَرّ، وقُرِّب إلى رسول اللَّه ﷺ خمس بدنات أو ست ينحرهن، فطَفِقْن يزدلفن إليه أيَّتُهنَّ يَبدأ بها»(٥٧).

ما بال النوق يُسْرِعْن للموت بين يديه.. وكأنَّ الموتَ بين يديه حياة! ما بالُها وَعَت مَا لم يَعِه غِلاظُ الأكباد مَن البشر؟! وما بالها سارعت فيما يرضيه، وقصَّر في محبته مَن شَرَّفهم اللَّهُ بالانتساب إليه بعد أن كانوا على هامشِ الحياة لا شأنَ لهم في الأرض ولا ذِكر لهم في السماء!

والإيمان بالنبي ﷺ بداهةٌ قلبية! إن كل من طالع سيرته بقلبه وعقله خاليا من شوائب الاعتراض ونوازع الهوى،

وتأمل في حياته ونهل من أحاديثه وأصغى إلى خفقاته الشريفة في أحرفه الباقية من بعده، محفوظةً حِفظَ النور، لا يملك إلا أمرين:

- إما حبه والإيمان به.
- أو تعظيمه وإجلاله واحترامه لمن لم يؤمن به ﷺ.

وهذا الكون خالٍ من الأهواء والأغراض التي تُلَوِّثُنا نحن بني آدم، فكيف لا يهرول إلى الإيمان بالنبي ﷺ، وهل يملك الإنسان إلا حب الرحمة والإيمان بالنور؟!

* * * * *

١٥

اشفاق وتعظيم لكلام اللَّه

هذا الكون العظيم الممتد في كل مكان إنما هو كيانٌ واحدٌ متجانس متآلف، مربوب خاضعٌ لرب واحد -سبحانه-، يستجيب للَّه، ويعظِّم كلام اللَّه، ويشفق من أوامر اللَّه.. فالسماوات والأرض والجبال الضخمة الهائلة التي يعيش الإنسان فيها أو حيالها فيبدو شيئًا صغيرًا ضئيلاً.. هذه الخلائق تعرف بارئها -سبحانه-، وتؤمن به، وتخشاه، وتخافه -سبحانه- حقيقة.

ولما عرَض اللَّه -سبحانه وتعالى- على السماوات والأرض والجبال حمل «الأمانة» وهي التكاليف الشرعية، وخيَّرها بين القبول أو الاعتذار، سارعت إلى الاعتذار، وما ذاك إلا تعظيمًا للَّه -تعالى- وأوامره كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ

﴿ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقد كان عرض الأمانة على هذه الأجرام حقيقيًّا، وأنه قيل لها: «إن أحسنتِ جزيتِ، وإن أسأتِ عُوقبتِ، فقلن: يا رب! إنَّا لا نستطيع هذا الأمر، ليس بنا قوة، ولكنا لك مطيعين»(٥٨).

ومع عدم تحمُّل هذه المخلوقات لأمانة التكليف إلا أنها في ذات الوقت سارعت إلى طاعة ربها في كل ما يشاء منها -سبحانه وتعالى-، ولذا فهي تؤدِّي وظيفتها بحكم خِلْقَتها وطبيعتها التي أرادها اللَّه منها على أحسن وجه وأتم حال كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، والمعنى أن اللَّه -سبحانه وتعالى- قال: «للسماء والأرض: جيئا بما خلقت فيكما، أما أنت يا سماء فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم، وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات، وتشقَّقِي عن الأنهار، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: جئنا بما أحدثت فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك لا نعصي أمرك»(٥٩).

تعظيم الكون للقرآن لو أنه نزل عليه!

وهكذا يخبرنا اللّه -سبحانه وتعالى- أنه لو أنزل القرآن العظيم على جبل من الجبال وَجُعِلَ للجبل عقلٌ كما جُعِلَ للبشر لرأيت الجبل -مع كونه في غاية القسوة والصلابة وضخامة الجرم- خاشعًا متصدعًا من خشية اللّه كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، أي: لاتّعظ الجبل وتصدَّع صخره من شدة تأثره من خشية اللّه، وحذرًا من عقابه، وخوفًا من أن لا يؤدِّي ما يجب عليه من تعظيم كلام اللّه، وهذا تمثيلٌ وتخييل يقتضي علوَّ شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب.

وقد ضُرِبَ التصدع مثلاً لشدة الانفعال والتأثر؛ لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنشق وتتصدع، ولا يحصل ذلك بسهولة، والخشوع: هو التطأطؤ والركوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض، والتصدع: التشقق، أي لتزلزل وتشقق من خوفه من اللّه تعالى[(٦٠)].

وهذا كله يدل على عظمة القرآن الكريم من جهةٍ، وعلى شدة أثره وتأثيره في الجبل والصخر والحجر والجمادات من جهةٍ ثانية.

بل إن اللَّه -سبحانه وتعالى- أخبرنا عن حقيقة أخرى فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، أي: لكان هذا القرآن دون غيره من الكتب، وذلك لعظيم أثره على هذه المخلوقات.

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو كان في الكتب الماضية كتابٌ تسير به الجبال عن أماكنها، أو تُقطع به الأرض وتَنْشَقُّ، أو تُكَلَّم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآنُ هو المتصفَ بذلك دون غيره»(٦١).

إن هذا الأثر الحاصل عند تلاوة القرآن الكريم أحد وجوه الإعجاز التي أودعها اللَّه -سبحانه وتعالى- في كلامه، يقول الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حالٍ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعةً قد عراها الوجيبُ والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال

العرب وفُتَّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مُسَالَمَتِه، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكُفْرُهم إيمانًا»[٦٢].

ويقول ابن النقيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الرَّوعة، ما يملأ القلوب هيبة، والنفوس خشية، وتستلذ الأسماع، وتميل إليه بالحنين الطباع، سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة، عالمةً بما يحتويه أو غير عالمة، كافرة بما جاء به أو مؤمنة».

والذي تشهده القلوب وتذعن له أن للقرآن سطوةً نوريةً تنقل الذي يستمع إليه من أفق إلى آخر؛ لأن فيه روح الميلاد من جديد، وهو يبعث النفس بعثا نوريًا من غفلتها، ويباعد بينها وبين أسباب موت القلب وفقد الضمير.

وكلما زالت الحجب التي بين العبد وحُسْنِ التلقي كان أعظم حظًا من الحياة التي تموج بها ألفاظ القرآن موجًا ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ وَمَآ﴾.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

١٦

محبة كونية!

من عجيب أمر الكائنات التي نظنُّها لا تعقل أنها تملك قدرًا عظيمًا من المشاعر والأحاسيس والانفعالات؛ فهي تحب المؤمنين، وتواليهم، وتدعو وتستغفر لهم، بل وتبكي على فراقهم، كما أنها تعادي أعداء اللَّه، وتبغضهم، وتتبرأ منهم، وتشهد عليهم يوم القيامة، وتفرح وتستريح عند موتهم..

وتلك مشاعر تمسح عن القلب صقيع الغربة، وتهدهد روحه بيد الطمأنينة، حتى إذا تعثر في ميدان القلوب المقفلة والنفوس الجامدة والوجوه الكالحة، وجد السلوى بمعية ربه تبارك اسمه، واستأنس بأنوار هذا الاعتقاد المبهج أن هنالك من ينتمي إليه ويوده، ويشاركه «الحب في اللَّه»!

وهذا ما جاء به القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

الحيوانات تدعو لمعلِّم الناس الخير:

عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جُحْرِها، وحتى الحوت، لَيُصَلُّون على معلم الناس الخير»[٦٣].

قال العلماء -رحمهم اللَّه-: «ذكر النملة والحوت بعد ذكر الثقلين والملائكة تتميم لجميع أنواع الحيوان.. وخص النملة والحوت بالذكر للدلالة على إنزال المطر وحصول الخير والخصب ببركتهم كما قال: «بهم تُنْصَرُون وبهم تُرْزَقُون» حتى إن الحوت الذي لا يفتقر إلى الماء افتقار غيره؛ لكونه في جوف الماء يعيش أبدًا ببركتهم»[٦٤].

فأيُّ حب هذا؟! وأي مشاعر تلك التي تحمل هذه الدواب على اختلاف أشكالها وأماكن وجودها على الاستغفار والدعاء لمعلم الناس الخير؟!

وهذا الاعتقاد باعثٌ كبير لديمومة الإقبال على نفع الخلق، وحمل سراج العلم يضيء به الإنسان ظلمة النفوس، وعتمة الأرواح المحاصرة بأسوار الجهل والضلال..

إن هنالك من يرابط على الدعاء له والاستغفار، ويعرفه باسمه في الملأ الأعلى، وفي قَصِيِّ الجحور، وقلب البحور!

ستشهد لك يوم القيامة:

عن عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: «إني أراك تحبُّ الغنَم والبادية، فإذا كنتَ في غنمك أو بادِيَتِك فأذَّنْتَ بالصلاة فارفع صوتك بالنداء؛ فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة». قال أبو سعيد: «سمعتُه من رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم»(٦٥).

فجميع الحيوانات والجمادات والنباتات، بل والجن والإنس، يشهدون للمؤذن عند ربه -تبارك وتعالى- بل قد جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنها تستغفر للمؤذن وتصدقه.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «يُغفَر للمؤذن منتهى أذانِه، ويستَغْفِرُ له كل رطْبٍ ويابس سمعه»(٦٦)، وثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «المؤذن يُغفَر له مدى صوتِه، ويُصَدِّقه كل رطْبٍ ويابس»(٦٧)، وفي رواية: «ويشهد له كل رطب ويابس»(٦٨).

شهود لا يحصيهم إلا اللَّه:

ليس الأمر مقتصرًا على الأذان فقط، بل الأمر أوسع من ذلك، فقد جاء في فضل التلبية في العمرة والحج ما رواه سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما من مسلم يلبِّي إلا لبَّى مَنْ عن يمينه أو عن شماله من حجر أو شجر أو مدر، حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا»[٦٩].

إنهن مستنطَقات:

بل إنَّ أنامل يد المؤمن تشهد له يوم القيامة، فعن يُسَيْرَة بنت ياسر أن النبي ﷺ: «أمرهن أن يراعين بالتكبير والتقديس والتهليل، وأن يعقدن بالأنامل؛ فإنهن مسئولات مُسْتَنْطَقاتٌ»[٧٠]. وفي رواية أبي داود: «يا معشر النساء! اعقِدن بالأنامل؛ فإنهن مسئولات مُسْتَنْطَقات»[٧١].

والمعنى أن النبي ﷺ أمرهن بالإكثار من ذكر اللَّه - تعالى- سواء كان ذلك بالتكبير وهو قول: اللَّه أكبر، أو كان ذلك بالتقديس وهو قول: سبُّوح قدُّوس رب الملائكة والروح، أو كان ذلك بالتهليل وهو قول: لا إله إلا اللَّه، ثم أمرهن بعقد ذلك التسبيح باليد؛ لأن أنامل اليد تشهد لمن ذكر اللَّه يوم القيامة.

جندي الغرقد!

إن الكائنات في هذا الكون تملك من المشاعر والأحاسيس وصدق المحبة والدعاء ما قد يفتقده كثير من البشر، بل إن أمر هذه الكائنات قد تعدَّى المشاعر القلبية، ليخرج في وقت ما بعمل وأيّ عمل!

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبداللّه! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[(٧٢)].

إنه ولاء للمؤمن أنطق الحجر والشجر، فسبحان من جعل الشجر والحجر يوالون عباد اللّه، في الوقت الذي نرى فيه مَن فقَد هذه المشاعر مِن بني جِلْدتنا!

بكاء الجمادات:

وتبلغ ذروة المشاعر عند الكون عندما يموت المؤمن، وكذا الكافر.

قال اللّه -تعالى- عن حال الكافرين: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ

﴿ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٩]، فالله -سبحانه وتعالى- يخبرنا أن السماء والأرض لا تبكيان على موت الكافرين والطغاة، بخلاف المؤمن الذي يبكي عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء.

«فالأرض التي كان بها قوم فرعون كان لها مشاعر، والجنات والأنهار والعيون وكل النعم التي ينعم بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس، وهي تغضب وتسخط وتضج بوجود الكافرين بنعمة الله فيها، ولذلك لا تبكي السماء والأرض على الخسف والتنكيل بهؤلاء العصاة الكافرين المشركين، بينما تبكي السماء والأرض إن فارقها مؤمن»(٧٣).

وعن عباد بن عبد الله قال: سأل رجل عليًا ﷺ: هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحدٌ قبلك، إنه ليس من عبدٍ إلا له مُصَلًّى في الأرض، ومصعد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض، ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ عليّ ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩](٧٤).

إن في هذا الدين إلحاحًا على إخراج القلب من غفلته إلى سعة الحياة وبحبوحة النور، وإلحاحًا على تخلق

صاحبه بالرقي، والارتفاع عن الحطام: يدعوه ليعلم الناس الخير.. يبني فيه معالم الإخلاص ولو كان خاليا يؤذن بالصلاة في البادية.. يخلصه من أثقال المادية النفعية التي تجعل الإنسان أجيرًا ترابيَّ النوازع والطموحات والأخلاق!

ما أعظم هذا الدين الإلهي الذي ارتضاه اللَّه له دينا!

وما أعظم منَّةَ اللَّه تعالى علينا بأن نكون مسلمين!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

١٧

الإشفاق من يوم البعث!

إنَّ المسلم ليس وحده الذي يؤمن بقيام الساعة، ولكن الكون كله يترقب معه قيامها، ويشفق منها إشفاق العبد الوجل؛ فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُهبِط، وفيه تِيبَ عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مُسِيخَة (أي: منصتة، مصغية) يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس؛ شفقًا من الساعة إلا الجن والإنس»[٧٥].

فمن عجيب أمر اللَّه -تعالى- في هذه الحيوانات والنباتات والجمادات أنه جعلها تميز بين الأيام، وتدرك أن الساعة لن تقوم إلا في يوم مخصوص وفي وقت مخصوص، بطريقة مخصوصة، ثم هي بعد ذلك تشفق وتخاف من ذلك اليوم. فسبحان من علمها وألهمها!

والمسلم يتيقن أن رد الحقوق إلى أهلها يوم القيامة لن يُستثنى منه أحد، حتى البهائم العجماء؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ، قال: «لتؤدَّنَّ الحقوقُ إلى أهلها يوم القيامة حتى يقادَ للشاة الجَلْحَاء من الشاة القَرْناء»[٧٦].

وعن أبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند اللَّه، وهو أعظم عند اللَّه من يوم الأضحى ويوم الفطر، فيه خمس خِلال: خلق اللَّه فيه آدم، وأهبط اللَّه فيه آدم إلى الأرض، وفيه توفى اللَّه آدم، وفيه ساعة لا يسأل اللَّه فيها العبد شيئًا إلا أعطاه ما لم يسأل حرامًا، وفيه تقوم الساعة، ما مِن مَلَك مقرَّب، ولا سماء، ولا أرض، ولا رياح، ولا جبال، ولا بحر، إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة»[٧٧].

فقوله: «(إلا وهن يشفقن) أي: يخفن من الإشفاق بمعنى الخوف، وقوله: (من يوم الجمعة) أي: خوفًا من فجأة الساعة، وفيه أن سائر المخلوقات تعلم الأيام بعينها، وأنها تعلم أن القيامة تقوم يوم الجمعة»[٧٨].

وعن مجاهد قال: «إذا كان يوم الجمعة، فزع البر والبحر، وما خلق اللَّه من شيءٍ.. إلا الإنسان»[٧٩].

ويقول أبو عمران الجوني: «بلغنا أنه لم تأتِ ليلة

الجمعة إلا أحدثت لأهل السماء فزعة»[٨٠].

لفتة:

فواعجبًا.. لأناس يؤمنون بالساعة ولم يخافوا وقوعها، ولم يستعدوا لها بشيءٍ من الأعمال الصالحة! بينما هذه العجماوات والجمادات تخاف من ذلك اليوم وتشفق!

إن هنالك منافسات خفيةً عند النظر في تلك الأحاديث بين قلب المؤمن ومشاعره وخفقاته العابدة، وتلك المخلوقات المخبتة المشفقة من يوم البعث والنشور..

كأنما يقال لك في كل حديث هنا: هذه مشاعر من هم أقل منك رتبةً، وأنت الذي اصطفيت وسُخِّر لك ما في السماوات والأرض، فكيف قلبك أنت؟!

وأين يقع ذكر الآخرة فيه، وما محلها من حياتك ومعاملاتك وأخلاقك وعبادتك؟

كلما تذكرت ذلك طرق قلبي قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠ - ٢١] ببنائه ونظمه وابتدائه بالنفي الزاجر: كلا، وإتباع ذلك بـ بل التي لا تدع مساحة لتكذيب أو إنكار غلبة حب العاجلة وبسطها سلطانها على النفوس.. ونسيان الآخرة نسيان من تركها هملا معرضا عن العمل لها، انشغالاً بالعاجلة وانغماسًا

في لحظاتها المنطفئة وساعاتها العجلى العابرة، وصراعاتها الفارغة المرتحلة!

وإنه لخجلٌ طويلٌ أن يكون الحمار والكلب والحجر أعظم إشفاقًا من يوم القيامة من كثيرٍ من أبناء آدم العقلاء المكلفين!

* * * * *

لوحات عابدة

سأمر بك هنا في لوحات عجلى على صور مؤنسة من عبوديات الكائنات، والبهائم والجمادات والأرض والسماوات التي نحسبها لا تعقل وإن كان في بعضها تكرار لشيء مر معنا بإيجاز نفصله باختصار هنا (١)

---

(١) استفدت كثيراً في هذا المبحث من كتاب «عبودية الكائنات لرب العالمين» للشيخ فريد إسماعيل التوني - حفظه الله -.

عُبُودِيَّةُ الحَيَوانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ

١٨

عبودية الجمل

في الإبل آيات كونية كثيرة، فهي الحيوان الوحيد الذي لفت القرآن نظر العرب إلى عجيبة الخلق فيه، فقال تعالى: ﴿بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ﴾ [الغاشية:١٧]؛ فإنها خَلق عجيب، وتركيبها غريب، فهي في غاية القوة والشدة، ومع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتصبر على الجوع والعطش، وتكتفي بما يتيسر لها من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وتؤكل وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها. وقد نُبِّهوا بذلك؛ لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل.

والإبل لها عبودية كغيرها من المخلوقات.. فعن جابر رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى دفعنا إلى حائط في بني النجار، فإذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحدٌ إلا شد عليه، فذكروا للنبي -عليه الصلاة والسلام-، فأتاه فدعاه،

فجاء واضعًا مشفره على الأرض حتى برك بين يديه، فقال: «هاتوا خطامًا» فخطمه، ودفعه إلى صاحبه، ثم التفت، فقال: «إنه ليس شيءٌ بين السماء والأرض إلا يعلم أنِّي رسولُ اللَّه إلا عاصي الجن والإنس»[٨١]، أي: إن ذلك الجمل وغيره من الكائنات الأخرى التي بين السماء والأرض لتعلم رسولَ اللَّه ﷺ، وتؤمن برسالته ونبوته إلا العصاة من الجن والإنس.

وعن يعلى بن مرة رضي الله عنه قال: كنت معه -يعني مع النبي ﷺ- جالسًا ذات يوم، إذ جاءه جمل يخبب[٨٢]، حتى صوَّب بجرانه بين يديه[٨٣]، ثم ذرفت عيناه، فقال النبي ﷺ: «ويحك، انظر لمن هذا الجمل! إنَّ له لشأنًا» قال: فخرجت التمس صاحبه، فوجدته لرجل من الأنصار، فدعوته إليه، فقال: ما شأن جملك هذا؟ فقال: وما شأنه! قال: لا أدري واللَّه ما شأنه، عملنا عليه، ونضحنا عليه، حتى عجز عن السقاية فائتمرنا البارحة أن ننحره، ونقسم لحمه، قال: «فلا تفعل، هبه لي، أو بِعْنِيهِ» فقال: بل هو لك يا رسول اللَّه، قال: فوسمه بِسِمَة الصدقة ثم بعث به[٨٤].

وفي رواية يقول يعلى بن مرة رضي الله عنه قال: «بينا نحن نسير معه - يعني النبي ﷺ- إذ مررنا ببعير يُسْنَى عليه،

فلما رآه البعير جرجر[٨٥]، ووضع جِرَانَه[٨٦]، فوقف عليه النبي ﷺ، فقال: أين صاحب هذا البعير؟ فجاء، فقال: بِعْنِيه، فقال: لا؛ بل أهبه لك، فقال: لا؛ بعنيه، قال: لا؛ بل نهبه لك، وإنه لِأَهْلِ بيتٍ ما لهم معيشة غيره، قال: أما إذ ذكرت هذا من أمره، فإنه شكا كثرة العمل، وقلة العلف، فأحسنوا إليه»[٨٧].

وكأنَّ الجمل وجد أخيرًا من ينقذه ويُنصِفه من العذاب الذي هو فيه مِن صاحبه، لذا حنَّ وبكى، ودمعت عيناه، وشكا ما يجد من ظلم وقسوة.

نظرة من الحبيب تكفي!

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يَسْنُون عليه[٨٨]، وإن الجمل استصعب عليهم فمنعهم ظَهْرَه، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول اللَّه ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نَسْنِي عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهرَه، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: «قوموا»، فقاموا، فدخل الحائطَ، والجملُ في ناحية، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا نبي اللَّه! إنه قد صار مثل الكَلْب الكَلِب، وإنا نخاف عليك صَوْلَتَه، فقال: «ليس عليَّ منه

بأس»، فلما نظر الجمل إلى رسول اللَّه ﷺ أقبل نحوه حتى خرَّ ساجدًا بين يديه، فأخذ رسول اللَّه ﷺ بناصيته أذلَّ ما كانت قط، حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول اللَّه هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل! فنحن أحق أن نسجد لك، فقال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقِّه عليها...»(٨٩).

يا اللَّه.. نظرة واحدة من الجمل إلى رسول اللَّه ﷺ غيَّرت حال الجمل وكيانه.. فلم يُطِق الجمل إلا أن يسجد لرسول اللَّه ﷺ حبًّا وإجلالاً، فأيُّ حبٍّ هذا! وأيُّ ودٍّ هذا!

* * * * *

١٩

عبودية البقرة

هذا الكائن المخلوق اعترف بأنه مربوب مخلوق، وأن خالقه عز وجل قد سخَّره لخدمة بني آدم، وهذا الاعتراف قد سمعه الناس زمن رسول اللَّه ﷺ، ففي الصحيح: «بينَا رجلٌ يسوق بقرةً، إذ ركبها فضربها، فقالت: إنَّا لم نُخْلَق لهذا، إنما خُلقنا للحرث».

فقال الناس: سبحان اللَّه! بقرةٌ تتكلَّم!!

فقال -عليه الصلاة والسلام-: «فإنِّي أُومِنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمر»[٩٠].

وها هو حديث آخر يطرق الإنسان بين يديه حياءً!

إن البقرة لتقول ما ترجمته: إن اللَّه تعالى خلقني في ناموس محدود من الأفعال والأعمال، وقبيحٌ بك يا ابن آدم أن تخرق هذا الناموس، وتشذ عن شريعة اللَّه وسننه في مخلوقاته فتعتدي وتضرب وتؤذي!

أوتدري أيها الناظر في هذا الكتاب أنني كلما سطرت موضعا، منه شعرت بالضآلة، وأحاط بي حياءٌ سابغٌ من رب العالمين ثم من مخلوقاته جميعا، تلك التي ما حادت عن صراط اللَّه، ولا خالفت أمره إليها. نحن من يبتعد، ونحن من يطغى ويعلو صوته بالدعاوى الفارغة والكذب المتلون، ونحن الذي ننسى عبادة ربنا وما خلقنا من أجله، ثم لم نكتف بهذا بل سعينا سعيًا إلى إيذاء من خالفنا، وظلم من وقع تحت سلطاننا وسعى في خدمتنا وتيسير الحياة علينا!

أستغفر اللَّه العظيم وأتوب إليه!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٢٠

عبودية الديك

من الحيوانات التي أثنى عليه الشارع ونهى عن سبّه ولعنه: الديكُ؛ فهو صاحب الملائكة والمتهجدين! وهو صاحب الهمة العالية، الذي ينادي في جوف الليل والأجساد نائمة، يسمع صوته ويعرف فضله أهل القيام والمتهجدين، وإذا سمعوا صوته بعد ذلك ذكَّرهم بلذة العبادة وهجر الوسادة، بل إن النبي ﷺ أخبر أن الديك يؤذن للصلاة، ولهذا نهى عن سبّه ولعنه، فعن زيد بن خالد رضي الله عنه أنه قال: قال -عليه الصلاة والسلام-: «لا تسبُّوا الديك؛ فإنه يدعو إلى الصلاة»(٩١)، وفي رواية: «فإنه يُوقِظ للصلاة»(٩٢).

وسبب ذلك أن ديكًا صرخ عند رسول الله فسبَّه رجلٌ فنهى رسول اللَّه عن سبِّ الديك، وقال: «لا تلعنه ولا تسبّه؛ فإنه يدعو للصلاة»(٩٣).

قال المُناوي: «جرت العادة بأنه يصرخ صرخات متتابعات إذا قرب الفجر، وعند الزوال؛ فهي فطرة فطره اللَّه عليها، ومن أعان على الطاعة يستحق هذا المدح والإكرام لا السب واللعان»[٩٤].

وقد ذكر بعض أهل العلم أن الصحابة - ﷺ - كانوا يسافرون بالدِّيَكَة؛ لتعرفهم أوقات الصلاة.

بل إن سماع صوته سببٌ لاستخراج الدعاء ورجاء الإجابة، قال -عليه الصلاة والسلام-: «إذا سمعتم الديكة فسلوا اللَّه من فضله؛ فإنها رأت مَلكًا، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا باللَّه من الشيطان الرجيم؛ فإنها رأت شيطانًا»[٩٥]؛ وذلك رجاء تأمين الملائكة على الدعاء، واستغفارهم وشهادتهم بالدعاء والتضرع.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٢١

عبودية الذئب

تكلم الذئب كلامًا زمنَ رسول اللَّه ﷺ يفيد اعتقاده بأن الرزق بيد اللَّه -سبحانه-، بل وأمَر راعي الغنم بتقوى اللَّه -تعالى-، كما يفيد بأن الذئب عالمٌ بنبوة سيدنا محمد ﷺ، وأخبر الراعي بمكانه بالمدينة، فكانت إحدى معجزاته ﷺ.

والقصة ذكرها البخاري في «صحيحه»: قَال رسولُ اللَّه ﷺ: «بينما رجلٌ في غنمه إذ عَدَا ذئبٌ، فذهب منها بشاةٍ، فطلب حتى كأنهُ استنقذها منه، فقال له الذئب: استنقذتها مني! فمن لها يوم السَّبُع، يوم لا راعي لها غيري»؟ فقال الناس: سبحان اللَّه!! ذئب يتكلم، فقال ﷺ: «فإني أومن بذلك أنا وأبو بكر وعمر»(٩٦).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدا الذئب على شاة، فأخذها، فطلب الراعي، فانتزعها منه، فأقعى

الذئب على ذَنَبِه، قال: ألا تتقي اللَّه، تنزع مني رزقًا ساقه اللَّه إليَّ، فقال: يا عجبي! ذئب مُقْعٍ على ذَنَبه يكلمني كلام الإنس! فقال الذئب: ألا أخبركَ بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزاوها إلى زاويةٍ من زواياها، ثم أتى رسول اللَّه ﷺ فأخبره، فأمر رسول اللَّه ﷺ فنُودي: الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول اللَّه ﷺ: «صدق والذي نفسي بيده»(٩٧).

فالحديث يدلُّ دلالةً واضحة على كلام الذئب؛ ولذلك تعجب الراعي فقال: «يا عجبي! ذئب مُقعٍ على ذَنَبِه يكلمني كلام الإنس»، بل وتعجب الناس، وقالوا: «سبحان اللَّه! ذئب يتكلم».

* * * * *

٢٢

عبودية النمل

النملة حشرةٌ صغيرة هزيلة ضعيفة لا تكاد تُرَى بالعين المجردة، لكنها تنتمي إلى أمة من الأمم العظيمة المسلمة المؤمنة، التي تسبِّح ربَّها وتذْكره، وتعبده وتحمده، وقد قصَّ اللَّه -سبحانه وتعالى- علينا من شأنها شيئًا عجبًا في كتابه مما يدل على فِطنتها وذكائها وحرصها على قومها، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك في أول الكتاب.

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «قرصت نملة نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأُحرقت، فأوحى اللَّه إليه: أَنْ قرصَتْك نملةٌ أحرقت أمةً من الأمم تسبِّح اللَّه»[(٩٨)]، وفي رواية: «فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى اللَّه إليه: فهلا نملة واحدة».

فهذا إخبار من اللَّه عز وجل بأن النمل أمة تسبح اللَّه عز وجل، وهذا التسبيح حقيقي، وأما الكيفية فاللَّه -تعالى- أعلم بها.

قال الحافظ العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال أبو العباس القرطبي في قوله «أهلكت أمة من الأمم تسبح»: مقتضاه أنه تسبيح مقال ونطق؛ كما قد أخبر -تعالى- عن النملة التي سمع نبي اللَّه سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قولها: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ إلى آخره، وفيه دلالة على أن لها نطقًا لكن لا يُسمع إلا بخرق عادة لنبيٍّ أو ولي، ولا يلزم من عدم إدراكنا له عدمه في نفسه»(٩٩).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استُدِلَّ به على أن الحيوان يسبِّح اللَّه -تعالى- حقيقةً، ويتأيد به قول من حمل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] على الحقيقة»(١٠٠).

وقد مَنَّ اللَّه -تعالى- على سيدنا سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن علَّمه منطقَ الطير، وكذلك الحيوانات، وأخبرنا -سبحانه وتعالى- بأن سيدنا سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد تَبسَّم من قول النملة، بمعنى أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد فهم كلام النملة فتبسم، قال تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، وفي

قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يدل على أدبها الرفيع حيث نزَّهت نبي اللَّه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ والمؤمنين معه أن يفعلوا ذلك تعمدًا، فهذا الكلام والتسبيح والأدب هو على الحقيقة حيث دلت عليه النصوص.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتكلمت النملة بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة: النداء، والتنبيه، والتسمية، والأمر، والنص، والتحذير، والتخصيص، والتفهيم، والتعميم، والاعتذار، فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة»(١٠١) اهـ.

والمتدبر لهذه الآية يرى بأن اللَّه - سبحانه وتعالى - قد أخبرنا بأن النمل أمة مثلنا تؤمن باللَّه وتعرف الرسل، وأن النمل يعيش حياة اجتماعية، أي يعيش معيشة تكافلية توزع فيها المهام؛ فمنها الملكة، ومنها الشغالات والذكور، وبعض النمل يخزن غذاءه وزرعه، وبعضها يرعى في ذلك الموكب الرهيب والجيوش الجرارة المتحركة..

وأما عن دعاء النملة للعالم الذي يُعَلِّم الناسَ الخيرَ، فيقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن اللَّه وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جُحْرها وحتى الحوت ليصلون(١٠٢) على معلم الناس الخير»(١٠٣).

فالنملة تعلم منزلة معلِّم الناس الخير، وتدعو له،

وإلحاقها وعطفها على دعاء الله عز وجل والملائكة وأهل السماوات والأرض له يدل على أن دعاءها حقيقي.

قال ابن كثير: «خرج سليمان بن داود -عليهما السلام- يستسقي، فإذا بنملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللَّهم إنا خلقٌ من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك، وإلا تسقنا تهلكنا، فقال سليمان: ارجعوا، فقد سُقيتم بدعوة غيركم»(١٠٤).

من الذي هدى النملة وعلمها!

يقول العلماء: إن النملة تنشأ لا تعلم شيئًا، ثم تتعلم جميع المهام الواجب القيام بها وفق برنامج شديد التعقيد يهديها إلى الطريق الصحيح، فمن أين لها القدرة على ذلك؟ إنه اللَّه -تعالى- القائل على لسان موسى عليه السلام عندما أنكر فرعون وجود اللَّه وسأله من ربك يا موسى فرد عليه: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. فاللَّه -تعالى- هو من أعطى هذه النملة خلقها وشكلها وزوَّدها بالأجهزة المناسبة، ثم هداها كيف تقوم بأعمالها دون تقصير أو خلل أو ملل، فسبحان الخلاق العظيم.

* * * * *

٢٣

عبودية الفرس

للفرس والخيل منزلة عظيمة في التراث العربي، فلم تُعنَ أمةٌ من الأمم بالخيل عناية العرب بها، فقد أحبُّوها واعتنوا بها، وبتربيتها وترويضها وبيطرتها، وحافظوا على أنسالها، وأنسابها حتى أصبحت الخيول العربية أكثر الخيول أصالةً في العالم.

ومن العجيب أن نجد الفرس يدعو بدعاء يتجه به إلى مَنْ يستحق الدعاء، وهو اللَّه عز وجل، ولكنا ما دمنا قد آمنا بعبودية وخضوع الكائنات كلها للَّه عز وجل بما يستحقه -سبحانه-، فإن هذا العجب يزول، ويزداد إيمان الذين آمنوا فوق إيمانهم ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

فعن أبي ذر الغفاري رَضِوَاللهُ عَنهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما من فرسٍ عربيٍّ إلا يُؤذَنُ له عند كل سَحَر بدعوتين:

اللَّهم خوَّلتني مَن خولتني من بني آدم، وجعلتني له فاجعلني أحب أهله وماله إليه، أو من أحب ماله وأهله إليه»[١٠٥].

وقد مر معاوية بن خديج على أبي ذر وهو قائم عند فرس له فسأله: «ما تعالج من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته، قال: وما دعاء البهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده، ما من فرس إلا وهو يدعو كل سَحَر فيقول: اللَّهم أنت خولتني عبدًا من عبادك، وجعلتَ رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله»[١٠٦].

فإن هذا الفرس يعترف بأنه مقهور ومسخَّر من قِبَل اللَّه -تعالى- لبني آدم، ولكنه في الوقت نفسه يعبد اللَّه -تعالى- باختيارٍ منه، فيدعوه سبحانه بأن يجعله مُذللاً ومُحببًا إلى مَنْ قدَّر اللَّه -تعالى- له بامتلاك هذا الفرس حتى يحافظ عليه، ويتقي اللَّه -تعالى- فيه، وذلك لأمر النبي ﷺ بتقوى اللَّه -تعالى- في هذه البهائم، فقال -عليه الصلاة والسلام-: «اتقوا اللَّه في هذه البهائم المُعْجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»[١٠٧].

* * * * *

٢٤

عبودية الهدهد

لقد سخَّر اللَّه -تعالى- لنبيه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كثيرًا من الكائنات، كان من جملتها الطيور بأنواعها، وقد أُوتيَ من المعجزات ما جعله يدرك منطق الطير، ويفهم كلامها ويخاطبها، وكان الهدهد من جملة تلك الطيور المسخَّرة لسيدنا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولُقِّبَ بملك الطيور؛ لما أتاه اللَّه -تعالى- من الحكمة والجمال، وكان لهذا الهدهد موقف عجيب مع نبي اللَّه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أظهر فيه عبوديته للَّه -تعالى-، فقد جاء إلى نبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بخبر مملكة سبأ، وبما جرى فيها من عبادة هؤلاء القوم للشمس، وقد أنكر بشدة عبادتهم لغير اللَّه -تعالى- مع استحقاقه سبحانه للعبادة دون سواه، وبيَّن الهدهد ذلك بكلامٍ يدل على توحيده للَّه -تعالى- وعبوديته له، فقال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾

لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾
فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ
بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ
﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ
ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٠ - ٢٦]، فانظر إلى التوحيد الخالص الذي تكلم به الهدهد، ويعجز الكثيرون من الناس عن التفوه بمثله، أو إدراك فحواه، وقد بيَّن في كلامه سبب كفرهم وبُعْدهم عن الهداية، وهو غواية الشيطان لهم.

يقول القرطبي رحمه الله: «إن الله -تعالى- خصَّه (أي: الهدهد) من المعرفة بتوحيده، ووجوب السجود له، وإنكار سجودهم للشمس، وإضافته للشيطان وتزيينه لهم، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجحة تهتدي إليها»(١٠٨). اهـ.

* * * * *

٢٥

عبودية الطيور

قال اللَّه -تعالى- عن عبودية وتسبيحها لربها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِن نعمه عليه، ما خصَّه به من أمره -تعالى- الجمادات، كالجبال والحيوانات، من الطيور، أن تُؤَوِّب معه، وتُرَجِّع التسبيح بحمد ربها، مجاوبة له، وفي هذا من النعمة عليه، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضًا له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات، تتجاوب بتسبيح ربها، وتمجيده، وتكبيره، وتحميده، كان ذلك مما يهيج على

ذكر اللّه تعالى. ومنها: أن ذلك - كما قال كثير من العلماء- طربٌ لصوت داود، فإن اللّه -تعالى-، قد أعطاه من حسن الصوت، ما فاق به غيره، وكان إذا رجَّع التسبيح والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب، طرب كل مَن سمعه، من الإنس، والجن، حتى الطيور والجبال، وسبَّحت بحمد ربها. ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبح تبعًا له»(١٠٩).

وقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨- ١٩].

إن الميزة العظمى هنا ليست هي تسبيح الطيور، فإن الطيور مسبِّحة بإذن ربها في كل وقت، ولكنَّ الميزة العظمى أن اللّه -سبحانه وتعالى- أسمع داود عليه السلام تسبيح الطيور والجبال، بل وجعلها تتجاوب معه في تسبيحه بشكل جميل ومتناسق متناغم.

أخرج الخطيب عن أبي حمزة قال: «كنا مع علي بن الحسين رضي الله عنه فمر بنا عصافير يصِحْن، فقال: أتدرون ما تقول هذه العصافير؟ فقلنا: لا، قال: أما إني ما أقول

إنَّا نعلم الغيب، ولكني سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إن الطير إذا أصبحت سبَّحت ربها، وسألته قُوتَ يومها، وإن هذه تُسبح ربها وتسأله قُوتَ يومها»[١١٠].

توكل الطيور على ربها:

من جليل عبودية الطيور لرب العالمين: حُسن توكلها على ربها، وثقتها فيه أثناء سعيها في تحصيل أرزاقها، وقد حثَّ النبي ﷺ أتباعه على التشبُّه بهذه الطيور في توكلها على ربها وأخذها بأسباب طلب الرزق وتفويض الأمر للَّه رب العالمين، فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إنه سمع نبي اللَّه ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكَّلُون على اللَّه حق توكُّلِه لرزقكم كما يرزق الطيرَ: تغدو خِماصًا وتروح بِطَانًا»[١١١].

تذهب هذه الطيور في الصباح الباكر خالية الحواصل، فإذا عادت في المساء كانت ممتلئة البطون. ولو كان التوكل في ترك الأسباب، لَقَرَّت الطير في وُكُنَاتِها وأوكارها تنتظر رزقها رغدًا يأتيها من كل مكان. ولكنها خرجت وطارت وسعت في أرجاء الحقول تبحث عن الحب والرزق، بعزمٍ وجَناح.

وهذا توكل الطيور، والبهائم، وسائر الكائنات، ولو توكل بنو آدم على اللَّه عز وجل حق توكله؛ لرزقهم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا فارغات البطون، وتروح بطانًا معمورة بطونها بما طاب من رزق اللَّه تعالى.

* * * * *

٢٦

عبودية السمك

وردت لفظة (حوت) بالمفرد والجمع في القرآن الكريم خمس مرات بمعنى صيد البحر، وجاءت في أربع منها بمعنى السمكة أو السمك، وفي مرة واحدة جاءت بمعنى أضخم حيوان بحري، أو أضخم حيوان عمَّر الأرض على الإطلاق.

وهو حيوان الحوت عديم الأسنان لكي يكون قادرًا على ابتلاع رجل كامل دون أن يؤذيه لضخامة فمه، وانعدام أسنانه، وضيق حلقه عن ابتلاعه في جوفه، ووفرة الأكسجين في مجاري تنفسه.

والاسم (حوت) يطلق على ما عظم وما قل من صيد البحر؛ لأنه مشتق من الفعل (حاوت) بمعنى راوغ، وأغلب الحياة البحرية تجيد المراوغة في محاولة للنجاة بنفسها من الافتراس أو الصيدّ، ولذلك يطلق لفظ

(الحوت) على أغلب أنواع الحياة المتحركة في الأوساط المائية، ومنها الأسماك والحيتان والدلافين وأشباهها.

خلق اللَّه -تعالى- السماوات والأرض، وجعل لكل منهما أهلاً، فأسكن ملائكتَه السماواتِ، وأسكن الإنسانَ والجنَّ والحيواناتِ الأرضَ، ومن جملة الأرض: البحار والأنهار، وهي من جنس واحد لوجود ما بها من ماء، ولكن هذا ملحٌ أُجَاج، وهذا عذبٌ فُرات، وخلق أيضًا في أعماق هذه المياه مخلوقات يصعُبُ حصرها من الحيتان المختلفة في أنواعها وأشكالها وألوانها وفصائلها، وكل المخلوقات التي في السماوات أو في الأرض أو في البحار عابدة له -سبحانه وتعالى-، مسبِّحة بحمده، كما يظهر ذلك مما يأتي في الحيتان.

استغفار الحيتان للعالم ومعلِّم الناس الخير:

لقوله ﷺ: «إنه ليستغفر للعالم مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض حتى الحيتان في البحر»(١١٢).

فقوله ﷺ: «حتى الحيتان»: إشعار بأن كل الكائنات تقدِّر منزلة العلم، لذا فهي تستغفر له، فالكل يستغفر حتى من لا يخطر ببالك بأنه يستغفر؛ فالحيتان في البحر تستغفر، والنملة في جحرها تستغفر وتدعو لمعلم الناس

الخير، كما أخبر ﷺ في الحديث الآخر بقوله: «إن اللّه وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت لَيُصَلُّون على مُعلِّم الناس الخير»[١١٣]. ومعنى: لَيُصَلُّون: أي يدعون لهم ويستغفرون لهم.

فالحيتان في البحر، والنملة في جحرها يقدِّرون فضل العالم ومنزلته في تعليم الخير[١١٤].

فسبحان مَن علَّم هذه العجماواتِ والجماداتِ توحيدَ اللَّه -تعالى-، فلا تدعو إلا اللَّه -سبحانه وتعالى- وحده، وسبحان مَن جعلها تعلم وتوقن أن اللَّه هو الذي يغفر الذنوب، وسبحان من جعلها توالي أهل الصلاح[١١٥] والعلم، فتدعو لهم في ظهر الغيب، وسبحان من علمها فضل العلماء على غيرهم.

*** * * * ***

٢٧

عبودية النباتات والأشجار

الشجر من المخلوقات التي سخَّرها اللَّه عز وجل للبشر للانتفاع به من ثمره وجذوعه وأغصانه ولحائه وعروشه وأوراقه، بل ومن ظلّه، يخضع للَّه عز وجل، وله عبودية خاصة به لا يعلمها إلا هو -سبحانه-، كما قال عن تسبيح الكائنات كلها: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. والكلام عن عبودية الشجر والنبات له محاور كثيرة، منها:

أولاً: سجود الشجر والنبات للَّه تعالى:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

وقال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

وسجود الشجر يكون بسجود ظلالها، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل»(١١٦).

وقد وقع سجود الشجر بغير الظلال، فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كنت عند النبي ﷺ، فأتاه رجلٌ، فقال: إني رأيت البارحة فيما يرى النائم كأني أصلي إلى شجرة، فقرأت السجدة، فسجدتُ، فَسَجَدَتِ الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول: اللَّهم احطُطْ عني بها وِزْرًا، واكتب لي بها أجرًا، واجعلها لي عندك ذُخرًا»(١١٧).

وهناك أحاديث أُخَر في نفس المعنى تم ذكرهم سابقًا.

ثانيًا: سماع الشجر لأذان المؤذن وشهادتها على ذلك:

من صور عبودية الشجر لرب العالمين: استماعها للأذان وشهادتها للمؤذنين، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إذا كنت في البوادي فارفع صوتك بالأذان، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا يسمعه جنٌّ، ولا إنسٌ، ولا شجرٌ، ولا حجر إلا شهد له»(١١٨).

ثالثًا: تلبية الشجر في الحج والعمرة:

ومن مظاهر عبودية الشجر: ترديده للتلبية مع الملبين بالحج والعمرة، فقد قال رسول اللَّه ﷺ: «ما من ملبٍّ

يلبي إلا لبَّى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا»[(١١٩)].

رابعًا: الولاء والبراء عند الشجر:

في «صحيح البخاري» أنه ﷺ مُرَّ عليه بجنازةٍ، فقال: «مُستريح ومُستراحٌ منه» فقالوا: يا رسول اللَّه، ما المستريح؟ وما المستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن مُستريحٌ من نَصَبِ الدنيا وأذاها إلى رحمة اللَّه -تعالى-، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»[(١٢٠)].

خامسًا: إيمان الشجر بالنبي ﷺ:

فقد دلَّت الأحاديث على إيمان الشجر بالرسول ﷺ، والسلام عليه، وانقيادها له، وطاعة أوامره حتى إن الإمام الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب «السنن» قد أفرد لها بابًا في ذلك بقوله: «باب ما أكرم اللَّه به نبيه من إيمان الشجر به والبهائم والجن»[(١٢١)]، وهذه جملة من هذه المواقف الدالة على ذلك:

الموقف الأول: استأذنت ربها لتسلم على حبيبها!

فعن يعلى بن مرة الثقفي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «.. ثم سرنا حتى نزل منزلاً، فنام النبيُّ ﷺ، فجاءت شجرة تشق الأرض

حتى غشيته، ثم رجعت مكانها، فلما استيقظ رسول اللّه ﷺ ذكرت له، فقال: هي شجرة استأذنت ربها أن تسلم على رسول اللَّه ﷺ، فأَذِنَ لها»[١٢٢].

سبحان اللَّه!! شجرة تعلم أن النائم هو رسول اللَّه -عليه الصلاة والسلام-، وتستأذن ربها في السلام عليه، ثم تنطلق من مكانها وتشق الأرض، حتى تسلم على حبيبها ﷺ.

الموقف الثاني: سلام الشجر على النبي ﷺ.

بعد بعثة النبي ﷺ كان لا يمر بجبلٍ أو شجرٍ إلا سلم عليه، فقد ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول اللَّه»[١٢٣].

الموقف الثالث: تثبيت النبي ﷺ بمشي الشجرة إليه.

عن أنس رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام ذات يوم إلى رسول اللَّه ﷺ وهو جالس حزين قد خُضِّب بالدماء، قد ضرَبه أهل مكة، فقال: فعل بي هؤلاء وفعلوا، قال: أتحب أن أريك آيةً؟ قال: نعم، أرني، فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، قال: ادعُ تلك الشجرة، فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، قال: قل لها فلترجع، فقال لها، فرجعت حتى عادت إلى مكانها، فقال رسول اللَّه ﷺ: «حسبي»[١٢٤].

الموقف الرابع: شهادةٌ لا تُرَدُّ!

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: جاء أعرابي إلى رسول اللَّه ﷺ قال: بِمَ أعرف أنك نبيٌّ؟! قال: «إن دعوتُ هذا العذق[١٢٥] من هذه النخلة يشهد أني رسول اللَّه»، فدعاه رسول اللَّه ﷺ، فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، ثم قال: «ارجع»، فعاد، فأسلم الأعرابي[١٢٦].

وفي رواية: «جاء رجل من بني عامر إلى النبي ﷺ كأنه يداوي ويعالج فقال: يا محمد! إنك تقول أشياء هل لك أن أداويك؟ قال: فدعاه رسول اللَّه ﷺ إلى اللَّه ثم قل: «هل لك أن أريك آية»؟ وعنده نخل وشجر فدعا رسول اللَّه ﷺ عذقًا منها فأقبل إليه وهو يسجد ويرفع رأسه، ويسجد ويرفع رأسه، حتى انتهى إليه ﷺ، فقام بين يديه، ثم قال له رسول اللَّه ﷺ: «ارجع إلى مكانك»، فقال العامري: واللَّه لا أكذبك بشيء تقوله أبدًا»[١٢٧].

إنها شهادات لا تحتاج إلى يمين ولا إلى دليل، إنها شهادات لا تحتمل إلا التصديق والقبول والإذعان.

إني أري حبَّ النبي عبادةً

ينجو بها يومَ الحساب المسلمُ

لكن إذا سلك المحبُّ سبيلَهُ
متأسيًا ولهديه يترسمُ

الموقف الخامس: انقياد الشجرة لرسول اللَّه ليستتر بها عند قضاء الحاجة.

ففي «صحيح مسلم» أنه -عليه الصلاة والسلام- ذهب لقضاء حاجته، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصنٍ من أغصانها، فقال: انقادي عليَّ بإذن اللَّه، فانقادت كالبعير المخشوش الذي يُصَانِعُ قائدَه حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصنٍ من أغصانها، فقال: انقادي عليَّ بإذن اللَّه، فانقادت معه كذلك، فجمعهما، فقال: التئما عليَّ بإذن اللَّه، فالتئمتا»[١٢٨].

وعن يعلى بن مُرَّة عن أبيه، قال: كنت مع النبي ﷺ في سفرٍ، فأراد أن يقضي حاجته، فقال لي: «ائْتِ تلك الأَشَاءَتَيْن (قال وكيع: يعني النخل الصغار)، فقل لهما: إن رسول اللَّه ﷺ يأمركما أن تجتمعا»، فاجتمعتا، فاستتر بهما، فقضى حاجته، ثم قال لي: «ائتهما، فقل لهما: لترجع كل واحدة منكما إلى مكانها»، فقلت لهما، فرجعتا[١٢٩].

فسبحان من جعل للشجرة إدراكًا وفهمًا تفهم به الخطاب!

وسبحان الذي جعلها تستجيب لأمر رسول اللَّه ﷺ.

أكـرِمْ بِـخَـلق نـبـي زانـه خُـلُق
بالحق مشتملٍ بالبشر مُتّسمِ
كالزهر في ترفٍ والبدر في شرفٍ
والبحر في كرم والدهر في هِمَمِ
جاءت لدعوته الأشجارُ ساجدةً
تمشي إليه على ساقٍ بلا قدمِ
يا ربّ أزكى صلاةٍ منك دائمة
على النبي بمنهَلّ ومنسجمِ
ما رنَّحت عذباتِ البان ريحُ صَبَا
وأطربت نغماتُ الآي من أُمم

الموقف السادس: حنين الشجرة (أو الجذع) لتحول الرسول ﷺ عنها!

ففي «صحيح البخاري» أنه: «كان -عليه الصلاة والسلام- يخطب الجمعة إلى شجرة أو نخلة (أو جذع - في رواية ابن عمر)، فقالت امرأةٌ من الأنصار: يا رسول اللَّه، ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: «إن شئتم»، فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل -عليه الصلاة

والسلام-، فضمَّهُ إليه، فوضع يده عليها، فسكنت»[١٣٠].

كان الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «يا معشر المسلمين! الخشبة تحنُّ إلى رسول اللَّه ﷺ شوقًا إلى لقائه فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إليه».

وعن عمرو بن سَوَاد عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أعطى اللَّه نبيًّا ما أعطى محمدًا فقلت: أعطى عيسى إحياء الموتى. قال: أعطى محمدًا حنين الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك».

سادسًا: شهادة الشجر والعِذْقِ لكلمة التوحيد:

عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فأقبل أعرابيٌّ، فلما دنا قال له رسول اللَّه ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه؟» قال: ومَن يشهدُ على ما تقول؟ قال: هذه السَّلَمَة (أي: الشجرة)، فدعاها رسول اللَّه ﷺ وهو بشاطئ الوادي، فأقبلت تَخُدُّ (أي: تشق) الأرضَ حتى قامتْ بين يديه، فاستشهدها ثلاثًا، فَشَهِدَت ثلاثًا أنه كما قال، ثم رجعت إلى مَنْبَتِها»[١٣١].

وقد ورد أن عِذْقًا شهد على صدق دعوى رسول اللَّه ﷺ، فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: جاء أعرابيٌّ إلى رسول اللَّه ﷺ قال: بم أعرف أنك نَبِيٌّ؟! قال: «إن دعَوْتَ هذا العذق

(أي: الفرع أو الجزء من الشجرة) من هذه النخلة يشهد أني رسول اللَّه»، فدعاه رسول اللَّه ﷺ، فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، ثم قال: «ارجع»، فعاد، فأسلم الأعرابي(١٣٢).

سابعًا: إعلام الشجرة بقدوم وفد الجن إلى النبي ﷺ:

جاء وفد الجِنِّ الذين أسلموا إلى النبي ﷺ ليستمعوا القرآن، وسألوه الزاد في طعامهم، فأخبرت شجرةٌ رسولَ اللَّه ﷺ بقدوم وفد الجن، فعن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي قال: «سألت مسروقًا: مَنْ آذَن (أي: أخبر أو أعلم) النبيَّ ﷺ بالجنِّ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني عبد اللَّه بن مسعود - أنه آذنت بهم شجرةٌ»(١٣٣).

ثامنًا: الشجرة تسجد تعظيمًا لكلام اللَّه:

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول اللَّه! إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة، فسجدتُ، فسجدتِ الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللَّهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عند ذُخْرًا، وتقبَّلها مني كما تقبلتها من عبدك داود»(١٣٤).

عُبُودِيَّةُ الجَمَادَات

٢٨

عبودية الجبال

أولاً: سجود الجبال للَّه تعالى:

لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

فهذه الآية عامة في إثبات السجود للَّه -تعالى- من جميع الكائنات كلها، والعطف يفيد أنها جميعًا عابدة للَّه -تعالى-، فأما الكيفية فلا يعلمها إلا هو سبحانه.

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سجود الجبال: «وأما الجبال والشجر فسجودهما بِفَيْءِ ظلالهما عن اليمين والشمائل»(١٣٥).

ثانيًا: تسبيح الجبال:

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، وقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، ومعنى: ﴿أَوِّبِي﴾ أَيْ: سَبِّحِي.

لقد كان داوود -عليه الصلاة والسلام- من أعبد الناس، وأكثرهم للَّه ذكرًا وتسبيحًا وتمجيدًا، وكان قد أعطاه اللَّه من حُسن الصوت ورقته ورخامته ما لم يؤته أحدًا من الخلق، فقد كان صوته آيةً في الجمال، وكان إذا سبَّح وأثنى على اللَّه جاوبته الجبال الصمُّ والطيور البُهْم فسبَّحت بحمد ربها، وهذا من فضل اللَّه عليه وإحسانه.

يا اللَّه ما أعظم المشهد، الجبال والطيور كلها في موكب الإجلال للَّه رب العالمين، إنها تسبِّح على الحقيقة، تسبيحًا يفقهه داود عليه السلام فيستمتع به، ويزداد معه نشاطًا ولذة وقُرْبًا!

نعم إن لهذا الذي من حولنا مشاعر تتهادى وانفعالات تتجاوب مع ذبذبات النور التي تنبعث من قلب المؤمن العابد لربه سبحانه وبحمده..

وإن للصالحين حظًّا من هذا المعنى كرامةً من اللَّه تعالى! فهذا سمنون المحب جلس في المسجد يومًا يتكلم عن

محبة اللَّه تعالى فاصطفقت قناديل المسجد!

وشرع يوما في مواجيد الحب وأسرار القُرب فجاء طائر فضرب بمنقاره الأرض حتى مات وجدًا(١٣٦)!

ثالثًا: خشية الجبال للَّه تعالى:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، فاللَّه عز وجل يُذَكِّر الناس بخشيته والخوف منه -سبحانه-، وذلك باجتناب المعاصي وفعل الطاعات، فيضرب اللَّه -تعالى- مثلاً بقياس الأَوْلَى، فالجبل مع صلابته ومع افتراض نزول القرآن عليه فإنه يخشع للَّه عز وجل، فالبشر مع تفضيل اللَّه -تعالى- لهم على كثير من الكائنات أولى بأن يكونوا أكثر للَّه -تعالى- خشيةً.

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فدل هذا كله على أنه -تعالى- وإن لم ينزل القرآن على جبل، أنه لو أنزله عليه لرأيته، كما قال تعالى: ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾»(١٣٧). اهـ.

ومن مظاهر تصدُّع الجبال من خشية اللَّه وعبوديتها لربها -سبحانه تعالى-: إنكارها الشديد الإدَّ -وهو المنكر العظيم -المُفْتَرى على اللَّه عز وجل بأن له ولدًا، وذلك من قبل كفَرة النصارى بقولهم: إن المسيح ابن اللَّه!

سبحانه! فلم يفظع لتلك الفرية أحدٌ قدر السماوات والأرض والجبال! حتى إن الجبال لتكاد تخر هدا من هذا الكذب العظيم والافتراء الأسود!

جاء في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله - تبارك وتعالى -: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد»(١٣٨).

قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١].

يقول أبو الفداء ابن كثير رحمه الله: «أي: يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظامًا للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات ومُؤَسَّسَاتٌ على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كُفْءَ له، بل هو الواحد الأحد»(١٣٩). اهـ.

رابعًا: خوف الجبال وإشفاقها من الله تعالى:

جاء في الحديث في بيان فضل يوم الجمعة، قال -عليه الصلاة والسلام-: «وفيه تقوم الساعة، ما من ملك مُقرَّب، ولا سماء، ولا أرض، ولا رياح، ولا جبال، ولا بحر إلا

وهن يشفقن من يوم الجمعة»(١٤٠).

خامسًا: عرض الأمانة على الجبال:

والجبال من جملة من عُرِضَ عليه أمانة التكليف وما يتبعها من الثواب والعقاب مع السماوات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقد تقدم أن العرض والإباء والإشفاق هو على الحقيقة لا المجاز.

سادسًا: سرور الجبال وفرحها بمن يذكر اللّه تعالى:

من صور عبودية الجبال للّه سبحانه: فرحها بمن يذكر اللّه عليها، حتى إنها لتتنافس فيما بينها ويزهو بعضها على بعض بمرور الذاكرين للّه والعابدين للّه بها:

فعن ابن مسعودٍ، قال: «إنَّ الجبل لَيُنادي الجبل باسمه: أي فُلانُ! هل مرَّ بك اليوم أحدٌ ذكر اللّه؟ فإذا قال: نعم، استبشر»، قال عونٌ: «فيستمعن الشَّرَّ ولا يستمعن الخير؟! هُنَّ للخير أسمعُ». وقرأ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩١](١٤١).

سابعًا: سلامها على النبي ﷺ:

ورد أنه بعد مبعثه ﷺ كانت الجبال تسلِّم عليه، وكذلك الأشجار، وذلك لما جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنت مع رسول اللَّه ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبَله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول اللَّه»(١٤٢).

ثامنًا: محبة الجبال للنبي ﷺ!

وقد أخبر -عليه الصلاة والسلام- أن أُحُدًا (وهو الجبل المعروف بالمدينة) يحب النبي ﷺ وأصحابه، كما يبادلونه هم هذا الحب، فيقول ﷺ عن جبل أُحُد: «هذا جبل يحبنا ونحبه»(١٤٣).

تاسعًا: اهتزاز الجبل من فرط الشوق:

لقد اهتز الجبل من فرط الشوق والحب والتعظيم لرسول اللَّه ﷺ، وقد وقعت عدة وقائع في ذلك، منها:

ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد أُحُدًا وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجَف بهم فقال: «اثبت أُحُد، فإن عليك نبيًا وصدِّيقًا وشهيدين»(١٤٤).

قال ابن المُنيِّر رحمه الله: «وهذه هزَّةُ الطرَب، ولهذا نصَّ

على مقام النبُوَّة والصدِّيقيَّة والشهادة التي تُوجِبُ سُرورَ ما اتَّصَلت به»[١٤٥].

وحدث هذا مع جبل ثبير:

عن عثمان رضي الله عنه: أنه ﷺ كان على ثبير بمكة، ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرَّك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض، فركضه برجله، وقال ﷺ: «اسكن ثبيرُ! فإنما عليك نبي وصدِّيق وشهيدان»[١٤٦].

وحدث هذا مع حراء:

عن أبي هريرة: أن رسول اللَّه ﷺ كان على جبل حراء[١٤٧] فتحرك، فقال رسول اللَّه ﷺ: «اسكن حراء، فما عليك إلا نبيٌّ، أو صدِّيقٌ، أو شهيدٌ»، وعليه النبيُّ ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم[١٤٨].

ومال حراء تحته فرحًا به

فلولا مقالُ «اسكُنْ» تضعضعَ وانقضَّا!

قال ابن حجر الهيتمي: «وهذه الروايات محمولةٌ على أنها وقائع تكررت»[١٤٩]، وهو ما اختاره الطبري وابن حجر رحمهما اللَّه[١٥٠].

ويجدر بنا هنا أن نذكر كلام ابن القيم رحمه الله عن الجبال، فهو ممتع للغاية، فيقول رحمه الله ما نصه بعد بيان

حكمة اللَّه -تعالى- من خلق الجبال على ما هي عليه:
«هذا مع أنها تسبِّح بحمده، وتخشع له، وتسجد، وتشفق، وتهبط من خشيته، وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعِظم خَلْقها من الأمانة إذ عرضها عليها، وأشفقت من حملها.

ومنها الجبل الذي كلم اللَّه عليه موسى كليمَه ونجيَّه!

ومنها الجبل الذي تجلى له ربه فساخ وتَدَكْدَكَ!

ومنها الجبل الذي حبَّب اللَّه رسولَه وأصحابَه إليه، وأحبَّه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه!

ومنها الجبلان اللذان جعلهما اللَّه سورًا على نبيه، وجعل الصفا في ذيل أحدهما، والمروةَ في ذيل الآخر، وشرع لعباده السعي بينهما، وجعله من مناسكهم وتعبداتهم!

ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات، فللَّه كم به من ذنبٍ مغفورٍ، وعَثْرَةٍ مُقَالة، وزلةٍ مَعْفُوٍّ عنها، وحاجة مقضية.

(ثم قال): ومنها جبل حراء الذي كان رسول اللَّه ﷺ يخلو فيه بربه، وهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم، فسبحان من اختص برحمته مَنْ شاء من الجبال والرجال!

هذا وإنها لتعلم أنَّ لها موعدًا ويومًا تُنسَف فيه نسفًا، وتصير كالعِهْنِ، فهي مشفقةٌ من هول ذلك الموعد.

فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية اللَّه.

فيا عجبًا من مضغةِ لحمٍ أقسى من هذه الجبال تسمع آياتِ اللَّه تتلى عليها ويُذكَرُ الربُّ -تعالى- فلا تلين ولا تخشع!!»[١٥١]. اهـ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٢٩

عبودية الحجر والحصى وغيرهما من الجمادات

أولاً: خشيتها من اللَّه عز وجل:

للأحجار عبودية للَّه تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الْحجر ليَقَع على الأرض وَلَو اجْتمع عَلَيْهِ كثير من النَّاس مَا استطاعوه، وَإِنَّهُ ليهبط من خشيَة اللَّه».

وقال مجاهد رحمه الله: «كل حجر يتفجر مِنْهُ المَاء، أَو يشَّقَقُ عَن مَاء، أَو يتردى من رَأس جبل فَمن خشيَة اللَّه، نزل بذلك الْقُرْآن»[١٥٢].

قال الطبري رحمه الله: «يعني بذلك جل ثناؤه: وإن من الحجارة لما يهبط - أي يتردى من رأس الجبل إلى

الأرض والسفح - من خوف اللَّه وخشيته»[١٥٣].

وتأمل قصة موسى عليه السلام تجد فيها عجبًا! قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لقد استشعر هذا الحجرُ الأصمُّ بل الجبل الأشم جلالَ اللَّه وعظمته، فتهاوى، وتفتَّت، وصار حطامًا.. كلُّ ذلك تعظيمًا للَّه وإجلالاً.

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول اللَّه ﷺ قرأ هذه الآية ذاتَ يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ورسول اللَّه ﷺ يقول هكذا بيده، ويحركها، يُقْبلُ بها ويُدْبِرُ، «يُمجِّد الرب نفسَه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملِك، أنا العزيز، أنا الكريم»، فرجَف برسول اللَّه ﷺ المنبرُ، حتى قلنا: لَيَخِرَّنَّ به[١٥٤].

لقد تحرك المنبر تعظيمًا للَّه وتبجيلاً، ولذلك أورد السيوطي رحمه الله هذا الحديث في «الخصائص الكبرى» في باب: ذكر معجزاته ﷺ في أنواع الجمادات.

ثانيًا: إيمانها بالنبي ﷺ:

عن جابر بن سمرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن»[١٥٥].

لا تتعجبوا من ذلك.. فقد نطقوا من فرط الحب، ومن يستطيع أن يكتم حبه وهو يرى خير الناس أجمعين ﷺ؟

ثالثًا: محبتها للتوحيد:

الحجر يشهد يوم القيامة للمؤذن على أذانه، ومعه آخرون يشهدون؛ لقوله ﷺ: «لا يسمع صوتَ المؤذن جنٌّ، ولا إنسٌ، ولا شجر، ولا حجر، ولا مَدَرٌ، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»[١٥٦]، وهذه الشهادة في عموم الأحجار.

وهناك شهادة خاصة للحجر الأسود، فهو يأتي يوم القيامة ويشهد لمن استلمه بحق - أي: بإخلاص للَّه - تعالى- قال -عليه الصلاة والسلام-: «ليأتينَّ هذا الحجر يوم القيامة وله عينان يُبصر بهما، ولسانٌ ينطق به، يشهد على مَنْ يستلمه بحق»[١٥٧].

رابعًا: تسبيحها:

كان الحصى يُسمَع تسبيحُه في يد النبي ﷺ، ففي

حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «انطلقتُ ألتمسُ رسولَ اللَّهِ في بعضِ حوائط المدينة، فإذا رسولُ اللَّه قاعدٌ، فأقبل إليه أبو ذَرٍّ حتى سلم على النبيِّ، قال أبو ذر: وحَصَياتٌ موضوعةٌ بين يديه، فأخذهن في يده فسَبَّحْنَ في يده، ثم أخذهن فوضعهن على الأرضِ فَخَرَسْنَ، ثم أخذهن فوضعهن في يد عمر فسَبَّحْنَ في يده، ثم أخذهن فوضعهن في يد عثمان فسَبَّحْنَ، ثم أخذهن فوضعهن في الأرض فَخَرَسْنَ»(١٥٨).

خامسًا: سجودها للَّه سبحانه وتعالى!

ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن النبي صلى الله عليه وسلم كُتبت عنده سورة النجم، فلما بلغ السجدة سجَد، وسجدنا معه، وسجدتِ الدواة والقلم»(١٥٩)! وما هذا السجود من الدواة والقلم إلا تعظيمًا لكلام اللَّه -سبحانه وتعالى-.

سادسًا: محبتها لأهل الصلاح، وبغضها للعصاة!

كما أن الكون يحزن لموت المؤمن، فإنه يفرح لموت الإنسان المطموس البعيد عن التوحيد والهدى والرحمة والنور! يكفر بربه أو يعصيه!

فعن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري: أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة فقال: «مستريحٌ ومستراحٌ منه»، قالوا يا رسول اللَّه: ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن

يستريح من نَصَب الدنيا وأذاها إلى رحمة اللَّه، والعبد الفاجر يستريح منه العباد، والبلاد، والشجر، والدواب»[١٦٠]. ومعنى ذلك أن هذه الكائنات كلها تكره الكافر، وتكره الفاسق الذي يعصي اللَّه -تبارك وتعالى-، وتودُّ موته حتى تستريح من شرِّه ومن أذيته إياها.

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن البهائم لتلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السَّنَة وأمسك المطر وتقول: هذا شؤمُ معصيةِ بني آدم»[١٦١].

وقال عكرمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «دوابُّ الأرض وهوامُّها، حتى الخنافس والعقارب يقولون: مُنِعْنَا القَطْرَ بذنوب بني آدم! فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنه مَن لا ذنب له»[١٦٢].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٣٠

عبودية الظلال

إن ظل الأشياء التي يُحدِثها الضوء الذي يسقط عليها؛ سواء كان من ضوء الشمس، أو ضوء غيرها، له عبودية للَّه -تعالى- بنص الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

فيقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، فبيَّن سبحانه عظمتَه وسلطانَه ومُلكَه الذي دان له كل شيء طَوْعًا من المؤمنين، وكَرْهًا من الكافرين، وذلك لخضوعهم لسنن اللَّه الكونية، فيقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

فالآيات تدل على سجود الكائنات وسجود ظلالها، وليس كما يظن بأن ظلَّ الأشياء أمرٌ طبعيٌّ لا تعليل له!

إن الظل وحركته وقبضه وبسطه بيد اللَّه تعالى وحده! فهو القادر على إبقاء هذا الظل وثبوته، كما قال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، يقول حنفي أحمد: «أي: ولو شاء لجعل الظل ساكنًا بسكون الأرض ودوام ضياء الشمس على الأرض، أو بعدم طلوعها ودوام ظل الأرض عليها، وكلا الحالين مُهْلِكٌ للحياة على الأرض، ومُبْطِلٌ لتعاقب الليل والنهار، وهذه الجملة تنبيهٌ لحكمته -تعالى- ورحمته بالناس»(١٦٣). اهـ.

يقول ابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يبعد أن يخلق اللَّه للضلال أفهامًا تسجد بها للَّه سبحانه، كما جعل للجبال أفهامًا حتى اشتغلت بتسبيحه.

وظل المؤمن يسجد للَّه طوعًا، وظل الكافر يسجد للَّه كرهًا».

* * * * *

٣١

عبودية الطعام

الطعام الذي يأكله الإنسان ويستفيد منه له تسبيحٌ خاصٌّ به، هذا وقد يكون مستغربًا عند قراءته، ولكنه حدَث في زمن الرسول ﷺ، وسمعه الصحابة - رضي الله عنهم -.

ففي الصحيح عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نعد الآياتِ بركةً، وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفر، فقل الماء، فقال: «اطلبوا فضلةً من ماء»، فجاءوا بإناءٍ فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «حيَّ على الطَّهُور المبارك، والبركةِ من اللَّه»! فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول اللَّه ﷺ، ولقد كُنَّا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤْكَل»(١٦٤).

وقال رضي الله عنه: «كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفر فدعا بالطعام، وكان الطعام يسبِّح»(١٦٥).

وفيه إشارة أن الصحابة كانوا يسمعون ذلك التسبيح من

الطعام، وذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن ذلك كان على عهد رسول اللَّه ﷺ غالبًا، وقد اشتهر تسبيح الطعام، وتسبيح الحصى، وحنين الجذع، ولم يكذب رواتها»(١٦٦).

وعن قيس بن حازم قال: كان أبو الدرداء وسليمان إذا كتب أحدهما إلى الآخر قال له: بآيةِ الصَّحْفَة، وذلك أنهما بينا هما يأكلان في صَحْفَةٍ إذْ سبَّحت وما فيها(١٦٧).

وقال إبراهيم النخعي: «الطعام يسبِّح»(١٦٨).

حياة هذه من تسبيح لا ينتهي وعبودية لا ينطفئ جمالها الوهاج!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٣٢

عبودية أعضاء الإنسان

إن الإنسان في الدنيا عندما يقترف الذنب فإنه يعمل جاهدًا على ألا يراه أحدٌ، ويحرص على ذلك أشد الحرص مع علمه بأن اللَّه -تعالى- مُطَّلِعٌ عليه في كل لحظة، ولكن هذا العلم يغيب عنه أثناء المعصية؛ لرغبته المُلحَّة في حصول تلك الشهوة المتلبسة بالمعصية، ولكن يبقى خائفًا كلَّ الخوف من اطلاع الناس عليها؛ لئلا يفوتوا عليه حصول تلك اللذة، ولا يعيبوه على ما اقترف من إثمٍ، ولذلك يستخفي أصحاب الموبقات أحيانا وإن كان عصرنا شهد من الجرأة ما لا يخفى على أحد! هذا كله في الدنيا.

أما في الآخرة فهناك المحكمة العليا في الآخرة يوم القضاء.. يوم الدين.. يوم الحساب.. فيأتي ذلك الآثم ويرى كتابه قد أحصى عليه معاصيه وجرائمه، لا

يغادر صغيرة ولا كبيرةً! فينكر صاحب الكتاب وقوع تلك الموبقات منه! ويطعن في الكرام الكاتبين الذين قيَّدوا عليه جميع ما اقترف، ويدعي بأنهم كتبوا ما لم يفعله، ثم يؤتى بجيرانه وأقاربه وعشيرته، فيشهدون عليه، فيكذِّب شهادتهم، فلا يقبل تلك الشهادات كلها إلا شاهدًا من نفسه؛ ظنًّا منه أنه سينفعه ويُنَجِّيه من عذاب اللَّه -تعالى- يومئذٍ، فيختم اللَّه -تعالى- على فمه، ويأمر سبحانه جوارحه أن تتكلم بما فعلت من المعاصي، فتنطق بما فعلت، وذلك بما أودعه اللَّه -تعالى- فيها من النطق - وهو سبحانه القادر على ذلك، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء -، فيكون هذا الجاحد في أشد الحيرة من أمره، فهو يجاهد أن ينجو بنفسه من النار بما في ذلك جوارحه كلها، والتي يجدها تشهد عليه، فيقول لهم حينئذ: «بُعدًا لكُنَّ وسحقًا، عنكنَّ كنت أجادل»[١٦٩]!!

وفي يوم القيامة لا يستطيع المرء إخفاء شيء من أمره مما كان يفعله في دنياه، فكل شيء سوف يظهر، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، فإن كانت السرائر - وهي ما يحدِّث المرء نفسه به - سوف تظهر يوم القيامة، فما بالنا بما فعله المرء عيانًا بيانًا؟! قال

تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

فالمرء إن حاول كتمان شيء -وأنّى له ذلك!- فإن جميع جوارحه سوف تشهد عليه وتنطق بما كتم! تفعل ذلك طاعةً للَّه عز وجل الذي تؤمن بقدرته التامة، وتبيِّنُ عنها في خطابٍ رائعٍ بين هذا الإنسان الجاحد وبين أعضائه من السمع والبصر واليد والرِّجل والجِلْد وغيرها، فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٠ - ٢٣]، وأما كلام الجوارح فذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وقد ذكر القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أسباب هذا الختم، ومنها: «لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق؛ لخروجه مخرج الإعجاز - وإن كان يومًا لا يحتاج إلى إعجاز-، ثم قال: ليعلم أن أعضاءه التي كانت أعوانًا

في حق نفسه صارت عليه شهودًا في حق ربه»[170].

وليس هذا بمستغرَب أن تجد تلك الجوارح تتحدث بهذه الكلمات الدالة على عبوديتها للَّه عز وجل، فتقول: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢١ - ٢٢]، في أسلوب بليغ لاذع ومؤلم في الوقت نفسه لتلك النفس الجاحدة.

والذي يؤكد كلام تلك الجوارح والأعضاء هو ما رواه مسلم في «صحيحه» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول اللَّه ﷺ، فضحك، فقال: «هل تدرون مم أضحك؟!» قلنا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربه، فيقول: يا رب، ألم تُجِرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني! قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فِيهِ، فيُقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعدًا لكُنَّ وسُحقًا، فعنكنَّ كنتُ أناضل»[171].

وقد جاءت رواية أخرى، وفيها أن فخذه ولحمه وعظمه يشهدون عليه، وذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «ثم يُقال: الآن نبعث شاهدًا عليك، فيتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليَّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط اللَّه عليه»(١٧٢).

وأول ما تتكلم من تلك الأعضاء وتشهد على صاحبها فخذه؛ فقد جاء في الحديث: «إن أول ما يتكلم من الآدمي فخذه»(١٧٣).

فالشواهد تدل على كلام وشهادة الأعضاء كلها من اليد والرِّجل، والفخذ واللحم، والعظام والجلود، والأذن والعينين، فتطيع أمر اللَّه -تعالى- بالإدلاء بما فعل كل عضو منها، والخطاب الموجود في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، والمحاورة بين الإنسان وأعضائه يدلُّ على أنها تعقل وتفهم، كما أن كلام تلك الأعضاء يدلُّ على إدراكها في الوقت نفسه.

ولقائلٍ أن يقول: إن تلك الشواهد خاصة بما سيحدث يوم القيامة من أشياء مغايرة لأحوال الدنيا، فنقول له: إن تلك الأعضاء تخضع للَّه عز وجل، وتعقل حتى في الدنيا، بل تحثّ بعضها البعض على تقوى اللَّه -تعالى-،

والاستقامة، وعدم الاعوجاج، بل وتسجد للَّه عز وجل!

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكَفِّر اللسان، فتقول: اتق اللَّه فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا»(١٧٤).

وقوله ﷺ: «فتقول» أي: إنَّ الأعضاء يكلِّم بعضها بعضًا خاصة اللسان، وذلك من خطره وآفته على الإنسان، فبسببه يوضع الناس في النار، كما أخبر بذلك رسول اللَّه ﷺ معاذًا في الحديث الصحيح، وفيه: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكُبُّ الناسَ على وجوههم في النار إلَّا حصائد ألسنتهم»(١٧٥).

لذا حثَّ النبي ﷺ على الصدقة لكل عضو من أعضاء الإنسان، فقال: «على كل عضو من أعضاء بني آدم صدقة»(١٧٦)، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «يصبح على كل سُلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة»(١٧٧).

والفم دون غيره من الأعضاء يختم عليه يوم القيامة، كما مر من الآيات ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، والحديث: «فيُختَم على فيه»(١٧٨).

ومما يؤكد كلام هذه الأعضاء في الدنيا، أنها ستتحدث في آخر الزمان، وعلينا أن نسلِّم بالإيمان بكلامها؛ حيث أخبر -عليه الصلاة والسلام- بأن فخِذ الإنسان سوف تحدثه بما فعل أهلُه من بعده، وهي من علامات الساعة، فعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تُكَلِّم السباعُ الإنسَ، وحتى يكلِّم الرجلَ عذبَةُ سوطه وشراكُ نعله، وتخبره فخذه بما أحدثَ أهلُهُ بعده»[(١٧٩)].

وأما سجود تلك الأعضاء للَّه عز وجل، فقال ﷺ: «إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب: وجهه، وكفَّاه، ورُكْبَتاه، وقَدَماه»[(١٨٠)]، وأمر ألا يُكْفَتَ الثياب، ولا الشعر[(١٨١)] حتى يثبت سجود الشعر بانتشاره، وهذا ما ذكره الشيخ الألباني[(١٨٢)].

فالشواهد دالةٌ على عبودية تلك الأعضاء للَّه عز وجل، وإدراكها الذي أودعه اللَّه -تعالى- فيها بما يحدث لها في الدنيا والآخرة، فليعمل المرء منا على محاسبة نفسه، ومراقبة أفعاله، وأن يُعْمِل تلك الأعضاء في طاعة اللَّه عز وجل، ولا يُعمِلْهَا فيما يُوجِب سخطَه وغضبَه -سبحانه-، وليعلم أنها شاهدةٌ عليه وعلى أفعاله يوم القيامة، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، وصدق اللَّه -تعالى- إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ

﴿ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

ولكن عجبًا لهذا الإنسان الجحود حقًّا ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، لم يكفه شهادة اللَّه عز وجل، ولا شهادة الملائكة، ولا شهادة جيرانه وأهله وعشيرته، بل يجادلُ لآخر لحظة، وصدق اللَّه -تعالى- إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، فتأتي أعضاؤه التي هي منه، وتشهد عليه، وتتكلم بما فعل، فحينئذ لا يجدُ مخرجًا ولا ناصرًا ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ١٠].

وأريد هنا أن أزيد شيئًا ما دمنا نتكلم عن الأعضاء، فقد ورد أن عضوًا من شاةٍ تكلم وهو الذراع، وذلك على عهد رسول اللَّه ﷺ حين سَمَّته المرأة اليهودية، فعن جابر رضي الله عنه أن يهودية من أهل خيبر سَمَّت شاة مصلية، ثم أهدتها لرسول اللَّه ﷺ، فأخذ رسول اللَّه ﷺ الذراع، فأكل منها، وأكل رهطٌ من أصحابه معه، ثم قال لهم: «ارفعوا أيديكم»، فأرسل إلى اليهودية، فدعاها، فقال: «أسَمَمْتِ هذه الشاة؟» فقالت: من أخبرك؟! قال: «أخبرتني هذه في يدي» - للذراع - قالت: نعم»[١٨٣].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

عُبُودِيَّةُ الأجرام السَّمَاوِيَّة وَمَايلحَق بهَا

٣٣

عبودية السماوات والأرض

يبيِّن اللَّه -عز وجل- في كتابه العزيز ملكه الواسع وكونه العظيم من الأشياء المادية وغير المادية، والغيبية وغيرها، فجاء ذكر السماوات والأرض كثيرًا في سور القرآن الكريم.

ولعل في ذكرهما الدائم إشارةً لعظم خلقهما، وأنهما يستوي في رؤيتهما المؤمن والكافر، فهما آيتان كونيِّتان على مر الزمان لمن أراد العبرة والوصول إلى الحق بالإيمان بصانعهما، فذكر اللَّه -عز وجل- عن خلقهما الكثير، وما يحدث لهما، وكيفيتهما، وتسخيرهما إلى غير ذلك من أمرهما.

وصدق اللَّه -تعالى- إذ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقد بيَّن اللَّه سبحانه عبوديتهما له في آيات كثيرة، كما ثبت أيضًا في السنة المطهرة ما يدل على ذلك، وإليك بيان ذلك:

أولاً: عرض الأمانة عليهما:

بعد أن خلق اللَّه -عز وجل- السماوات والأرض والجبال، عرض اللَّه -عز وجل- أمانة التكليف على السماوات والأرض والجبال، ولكنهن أبين وأشفقن أن لا يقمن بحقها، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الأمانة الفرائض، وعرضها اللَّه -عز وجل- على السماوات والأرض والجبال إن أدَّوها أثابهم، وإن ضيَّعُوها عذَّبهم، فكرهوا ذلك، وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين اللَّه عز وجل ألا يقوموا به، ثم عرضها على آدم فتقبلها بما فيها»[(١٨٤)].

ثانيًا: طاعتهما أمر اللَّه تعالى:

فقد أمرهما اللَّه عز وجل بالإتيان والإذعان لما أمرهما به، طوعًا أو كرهًا، فاستجابتا إليه طوعًا غير كارهين،

فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: استجيبا لأمري، وانفعلا لفعلي طائعتَيْن أو مكرهتين، ثم قال: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: بل نستجيب لك مطيعين.

قال الحسن البصري: لو أبيا عليه أمره لعذَّبهما عذابًا يجدان ألمه»(١٨٥).

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «قال اللَّه عز وجل: أما أنتِ يا سماء فأطلعي شمسَكِ وقمركِ ونجومَكِ، وأنتِ يا أرض فشُقِّي أنهاركِ وأخرجي ثمارَكِ ونباتَك، وقال لهما: افعلا ما آمُرُكما طَوْعًا وإلا ألجأتُكما إلى ذلك حتى تفعلاه كَرْهًا، فأجابتا بالطوع»(١٨٦).

من الأوامر التي أطاعت السماء والأرض ربهما:

كان للأرض والسماء حضور باهر في قصة سيدنا نوح مع قومه.. فقد أمر سبحانه الأرض أن تبتلع ما عليها من ماء، والسماء أن تنقطع عن المطر، وقد كانا قبلُ في طوفان غامر موصولٍ بين السماء والأرض: أبواب السماء مفتوحةٌ بماء منهمر، والأرض متفجِّرَةٌ كلها عيونا تغمر اليابسة بالماء!

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

فكان الطوفان عذابًا للمكذبين ونجاة لسيدنا نوح ومن معه في الفلك من المؤمنين وما اصطفى من الحيوان والطير وما شاء اللَّه تعالى..

فقال عز من قائل: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

ثالثًا: إنكارهن قول النصارى أن المسيح ابن اللَّه:

لقد كان رد فعل السماوات والأرض والجبال للفرية التي ادعاها النصارى شديدًا، هذه الفرية هي القول بأن نبي اللَّه عيسى عليه السلام ابن اللَّه، فما أن سمعت السماوات والأرض والجبال هذا الإدّ -وهو المنكر العظيم- حتى كادت تُهَدُّ هدًّا؛ إنكارًا لهذا الشرك المبين المنافي لما خلق اللَّه -تعالى- عليه الكائناتِ كلَّها من توحيده عز وجل، فقال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١].

قال ابن جرير رحمه الله: «عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثَّقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة اللَّه»(١٨٧).

رابعًا: تسبيح السماوات والأرض لله عز وجل:

السماوات والأرضون في تسبيح دائم لا ينقطع تقديسا للَّه وتعظيما لجلاله سبحانه وبحمده، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

قلبٌ سماوي!

السماء مُتَعَبَّدُ الملائكة ومُستقر الوحي، وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقرُّ التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان، وفيه أنوارها!

وقد حرس اللَّه السماء بالنجوم فلا يقربها شيطان إلا احترق، وليست السماء بأعظم حرمةً من المؤمن، وحراسة اللَّه له أتمُّ من حراسة السماء!

ولقد يصفو القلب ويرق حتى يُصْبَغَ صِبغةَ المَلَكِ، فهو في صفاء نفسه ونور إيمانه وسكينة الإطمئنان بربه، وحلاوة الفرح به، والركون إليه والهرولة إلى بابه والمسكنة على عتبة العبودية..

فيكون لصاحبه من أنوار المهابة والجمال ما للسماء بل أجمل، كلما جلس نثر من حوله سكينةً تتلألؤ بالرحمات

التي تُئوي إليه القلوبَ المجهدة من قيظ الحياة وصحراء القلق والفتن؛ كأنَّه تحت جناح مَلكٍ يرتل في سره زجل التسبيح وهمهمات التمجيد!

كأن صفحة وجهه نافذة سماوية يطالع فيها الإنسان ميثاق السكينة والحياة والنور والأمل!

وكأن في عينيه أنوار التثبيت التي تجدد الحياة والنور والبهجة في القلب!

تقوم عنه وقد عادت إليك نفسك، وارتوى قلبك من كوثر الرحمات والنفحات العلوية الربانية!

وهذا ما يفسر ما قيل في تراجم كثير من السلف كابن سيرين والحسن وابن المبارك وغيرهم: كان إذا رؤيَ ذُكِر اللّه تعالى!

إنك أنت الأعلى!

كان النبي ﷺ كثير النظر إلى السماء! تدبرا وتفكرا، ومحبةً وحنينا!

وفي كثير من الأحاديث أنه كان يرفع طرفه إلى السماء ويدعو، إذا خرج من بيته، وإذا ضاق صدره من الهم.. يرتفع حِسًّا ومعنًى، وروحًا وقلبًا، ويدون على جدران السماء ضراعاته، ويعلو على سفاسف الأرض وترابها الضيق بالصخب والضجيج، إلى فسحة السماء ورحابتها

المبنية على أنفاس التسبيح والتحميد!

كأنما يقول بلسان حاله للهمِّ: إن معي ربي سيهدين!

خامسًا: إشفاقهن من يوم الجمعة:

فالسماوات والأرض يشفقن من يوم الجمعة؛ لأنه تقوم الساعة فيه، فهن يخفن من ذلك اليوم وما سيحدث فيه من المشاهد التي تذهل العقول، فعن أبي لبابة بن عبد المنذر قال: قال النبي ﷺ: «إن يوم الجمعة سيِّدُ الأيام وأعظمها عند اللَّه، وفيه تقوم الساعة، ما من ملكٍ مقرَّب، ولا سماء، ولا أرض، ولا رياح، ولا بحر إلا وهنَّ يشفقن من يوم الجمعة»[(١٨٨)].

سادسًا: بكاء السماوات والأرض على فراق المؤمنين الصالحين:

قال اللَّه جل وعلا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩]، وفي هذه الآية إثبات البكاء للسماء والأرض، وأنهما لا يبكيان على الكافرين، بل يبكيان على فراق المؤمن الصالح من هذه الدنيا، وليس بالضرورة أن يكون هذا البكاء بدموع وأنين حتى يشبه بكاء الإنس، ولكنه بكاء خاصّ بهما، لا يعلمه إلا خالقهما.

وعن سعيد بن جبير قال: أتى ابنَ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلٌ

فقال: يا أبا عباس أرأيت قول اللَّه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: «نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأُغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر اللَّه فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى اللَّه منهم خير، فلم تبكِ عليهم السماء والأرض»(١٨٩).

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحًا»، قال أبو يحيى: فعجبت من قوله فقال: «أتعجب! وما للأرض لا تبكي على عبد يعمرها بالركوع والسجود! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيٌّ كدوي النحل»!.

وقال عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما من عبدٍ يسجد للَّه سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت»(١٩٠).

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بِقَاعُ المؤمن التي كان يصلي فيها من الأرض تبكي عليه إذا مات، وبِقاعُه من السماء التي يُرفع فيها عمله»(١٩١)، وقال: «لا تبكي السماء والأرض

على الكافر، وتبكي على المؤمن الصالح معالمُه من الأرض، ومقرُّ عمله من السماء»(١٩٢).

وعن أبي عُبَيْدٍ صاحب سليمان بن عبد الملك، قال: «إن العبد المؤمن إذا مات تنادَتْ بقاع الأرض: مات عبد اللّه المؤمن! فتبكي عليه الأرض والسماء، فيقول الرحمن: ما يُبكيكما على عبدي؟، فيقولان: ربنا لم يمشِ في ناحيةٍ منا قطُّ إلا وهو يذكرك»(١٩٣).

وعن محمد بن كعب قال: «إن الأرض لتبكي من رجل، وتبكي على رجل، تبكي على من كان يعمل على ظهرها بطاعة اللّه، وتبكي من رجلٍ كان يعمل على ظهرها بمعصية اللّه»(١٩٤).

وقال محمد بن قيس: «بلغني أن السماواتِ والأرضَ تبكيان على المؤمن، تقول السماوات: ما زال يصعد إليَّ منه خير! وتقول الأرض: ما زال يفعل عليَّ خيرًا»(١٩٥).

ويقول الضحاك رَحِمَهُ اللَّهُ: «تبكي على المؤمن الصالح معالِمُه من الأرض، ومَقَرُّ عمله من السماء»(١٩٦).

ولا عجب فيما نقول: «فإذا كانت السماوات والأرض تسبِّح وتسمع وتتكلم، فكذلك تبكي»(١٩٧).

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٣٤

عبودية الشمس والقمر

الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه -تعالى- الكونية التي يراها جميع المخلوقات، وتدل على عظمة خالقها، وقدرة باريها، وهما من الكائنات المخلوقة والمسخرة لبني آدم، والمأمورة من قبل اللَّه عز وجل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

والشمس والقمر يسجدان للَّه -عز وجل- سجودَ طاعة وانقياد وخضوع، وهذا ما يظهر من الآيات القرآنية.

كما نجد بعض النصوص الشرعية تشهد بأن للشمس

وللقمر سجودًا حقيقيًا، وأما عن كيفيته فلا يعلمه إلا اللَّه عز وجل، فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨].

فعطف سجود الشمس والقمر على سجود الملائكة والبشر يدل على حقيقة هذا السجود للكائنات كلها.

ومما يؤكد هذا السجود ما جاء في «الصحيحين» عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يومًا: «أتدرون أين تذهب الشمس؟» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع، فتصبح طالعة من مطلعها» الحديث(١٩٨).

يقول أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعليقًا على حديث أبي ذر، «فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح بسجود الشمس إذا غربت واستئذانها، وكذلك قال أبو العالية وغيره. قال أبو العالية: ما في السماء نجم، ولا شمس، ولا قمر إلا ويقع ساجدًا حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه.

ومعلوم أن الشمس لا تزال في الفلك، كما أخبر اللَّه - تعالى- بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، فهي لا تزال في الفلك، وهي تسجد للَّه وتستأذنه كلَّ ليلةٍ كما أخبر النبي ﷺ، فهي تسجد سجودًا يناسبها، وتخضع له وتخشع، كما يخضع له ويخشع له كل ساجد من الملائكة والجن والإنس»[١٩٩] اهـ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن دينار رضي الله عنه قال: «سمعت رجلاً يطوف بالبيت ويبكي فإذا هو طاوس! فقال: عجبت من بكائي؟ قلت: نعم، قال: ورب هذه البَنِيَّة إن هذا القمر ليبكي من خشية اللَّه، ولا ذنبَ له»[٢٠٠].

وعن ابن أبي مليكة رضي الله عنه قال: مر رجل على عبد اللَّه بن عمرو وهو ساجد في الحِجْر وهو يبكي فقال: «أتعجب أن أبكي من خشية اللَّه، وهذا القمر يبكي من خشية اللَّه؟!»[٢٠١].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٣٥

عبودية النجوم

النجوم من الكائنات العلوية التي سخَّرها اللَّه عز وجل لبني آدم، يهتدي بها في ظلمات الليل، وتعينه على الهداية في سيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]. فهي مسخَّرةٌ خاضعةٌ لأمر اللَّه -تعالى- لها، حيث قال -تعالى- عنها: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢]، وهي كغيرها من الكائنات تعبد اللَّه عز وجل، وتسجد له، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن

﴿...مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

وقد اختلف في (النجم) في آية الرحمن السابقة، فالبعض(٢٠٢) يذهب إلى أنه النبات الصغير، وآخرون(٢٠٣) قالوا بأنه النجم الذي في السماء، حيث إن القرآن يُفَسِّر بعضه بعضًا، والرأي الثاني هو الأَوْلى، وأيًا كان الأمر فالسجود ثابت للنجوم بالآية القرآنية التي في سورة الحج.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

٣٦

عبودية الرعد

إن الرَّعد من آيات اللَّه -تعالى- الكونية التي نسمعها، فتُحدِث صوتًا دويًا في السماء، وهو عبدٌ خاشع خائف من خالقه دائم التسبيح له!

قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]

وقد كان -عليه الصلاة والسلام- إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: «سبحان الذي يُسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»، ثم يقول: «إن هذا لوعيدٌ لأهل الأرض شديد»[٢٠٤].

* * * * *

٣٧

عبودية الرياح

إن الرياح التي نشعر بها ولا نراها في حياتنا قد نستغرب من شأنها حين نعلم أن لها ذاتًا وإدراكًا تخضع لأمر خالقها وموجدها، ومسخَّرَة لأمر بعض الأنبياء وهو نبي اللَّه سليمان عليه السلام، فهي تشفق من قيام الساعة، كما أخبر المصطفى -عليه الصلاة والسلام- عن إشفاق الرياح وغيرها من الكائنات الأخرى من يوم الجمعة حيث تقوم الساعة فيه -كما تقدم- فيقول ﷺ: «وفيه تقومُ الساعة، ما من ملكٍ مقرب، ولا سماء، ولا أرض، ولا رياح، ولا بحر إلا وهنَّ يشفقن من يوم الجمعة»[٢٠٥].

ولقد كان لها شأن مع نبي اللَّه سليمان عليه السلام؛ حيث كانت تغدو وتروح وتجري بأمره حيث أراد أن يذهب، فقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

ومن عجائبها أنها هاجت لموت منافق؛ فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم رسول اللَّه ﷺ من سفر، فلما كان قُربَ المدينة هاجت ريح تكاد أن تدفن الراكب، فقال رسول اللَّه ﷺ: «بُعِثَت هذه الريح لموت منافق»، فقدم المدينة فإذا عظيم من المنافقين قد مات(٢٠٦).

وهو ما يدل على تبرؤ الريح من أهل المعاصي الذين خرجوا عن عبودية اللَّه -تعالى- الحقة.

وهذا المخلوق العابد المحب لربه المسبح حرم علينا لعنه، وكيف نلعن عابدًا متبتلا مطيعا لأوامر ربه؟!

قال ﷺ: «لا تلعن الريح؛ فإنها مأمورة»(٢٠٧).

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

٣٨

عبودية السحاب

إن السحاب الذي نراه في السماء كما أنه يدل على عظمة خالقه وقدرة فاطره، فله عبودية للَّه عز وجل، وله إدراك خاصٌّ به، فيُؤمَر بإنزال المطر في مكانٍ ما، كما يؤمر بإمساكه عن مكان آخر، وهو في كلا الحالين مسخَّر ومطيعٌ لأوامر خالقه عز وجل.

فقد شهدت السُّنَّة الصحيحة بإثبات عبودية هذا الكائن للَّه عز وجل، وإثبات إدراكات خاصة به وموالاته لأهل طاعة اللَّه -تعالى-، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بينما رجلٌ بفلاةٍ من الأرض إذْ سمع صوتًا في سحابة: (اسْقِ حديقةَ فلانٍ)! فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة، فلما توسطَتْها أفرغتْ فيها ماءها، فإذا برجل معه مِسْحَاةٌ يَسحي الماءَ بها، فقال: ما اسمك يا عبد اللَّه؟ قال: فلان! للاسم الذي

سمعه في السحابة.

فقال له: يا عبد اللّه، لم تسألني عن اسمي؟

فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلانٍ، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها، وأتصدق بثلثه، وآكُلُ أنا وعيالي ثُلُثَه، وأرد فيها ثُلُثَه»[٢٠٨].

فكانت تلك السحابة مأمورةً بإنزال ما فيها من ماء على حديقة ذلك الرجل الذي كان يتصدق بثلث ماله، فإدراك تلك السحابة للخطاب وسريانها إلى حديقة ذلك الرجل ومعرفتها باسمه وإنزالها الماء على الحديقة المعنية يدل على الإدراكات التي أودعها اللّه عز وجل في السحاب، ولم يخلق اللّه -تعالى- ذلك عبثًا، ذلك تقدير العزيز العليم، وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

* * * * *

عُبُودِيَّةٌ في عالم الغيب

كما أن المخلوقات التي يطالعها الإنسان في حياته الدنيوية لها عبودية وتسبيح للَّه تعالى، كما سبق تفصيل ذلك، فكذلك للمخلوقات في الآخرة عبودية خاصة، وهذه بعض التأملات في صور عبودية المخلوقات الأخروية.

٣٩

عبودية الجنة والنار

للجنة وللنار عبودية خاصة، قال ﷺ: «تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أُوثِرتُ بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطُهم وغَبْرَتُهم؟ فقال اللَّه عز وجل للجنة: إنما أنتِ رحمتي، أرحم بكِ مَن أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنتِ عذابي، أُعَذِّبُ بكِ من أشاء من عبادي، ولكل واحدةٍ منكما مِلْؤُها»[٢٠٩].

وقال ﷺ: «اشتكتِ النار لربها، وقالت: أكَلَ بعضي بعضًا، فجعل لها نفَسَيْن؛ نَفَسًا في الشتاء، ونفسًا في الصيف، فأما نَفَسُها في الشتاء فزمهرير، وأمَّا نَفَسُها في الصيف فسَمُوم»[٢١٠]، والشاهد: أنها اشتكت.

ويقول تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]، وهذا يدل على أن فيها إدراكًا، فالنار

لها لسان، بل لها أذنان وعينان، كما قال عليه الصلاة والسلام: «يخرج عُنُقٌ من النار يومَ القيامة له عينان تُبصران، وأُذُنانِ تَسمعان، ولسانٌ ينطِق، ويقول: إني وُكِّلْتُ بثلاثةٍ؛ بكل جبارٍ عنيدٍ، وبكل من دعا مع اللَّه إلهًا آخر، وبالْمُصَوِّرين»(٢١١).

وللنار ولاء لخالقها سبحانه وبحمده، كما مر معنا قبلُ، فهي تتغيظ من الحَنَق والحقد والبغض للكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، وفي قوله: (مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) إشارةٌ إلى حِدَّةِ بصرها.

ويقول تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧-٨]، أي: تتقطع من الغيظ؛ لأنها تعادي أعداء اللَّه، وتتولى تعذيبهم والانتقام منهم.

وكذلك هذه النار التي نراها في الدنيا أيضًا لها إدراك، وهي مطيعة لأمر اللَّه، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فخاطب اللَّه النار فأطاعت أمره.

والدليل على ذلك أيضًا: أن عادة الأنبياء في الأمم السابقة في الغنائم أنهم كانوا إذا جمعوها بعد الجهاد تنزل نارٌ من السماء فتحرق هذه الغنائم، فإذا أكلت النار

هذه الغنائم فهذه علامة على أن اللَّه تقبَّلها، فيكون ذلك علامةً على قبولها، وسلامتها من الغُلول، وهو: السرقة من الغنائم قبل قسمتها.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «غزا نبيٌّ من الأنبياء... إلى أن قال عليه الصلاة والسلام: حتى فتح اللَّه عليه، فجمعوا ما غنموا، فأقبلت النار تأكله، فأبتْ أن تَطْعَمَه، فقال: فيكم غُلول، فلْيُبَايِعْنِي من كل قبيلةٍ رجلٌ. فبايعوه، فلصقت يد رجل، فقال: فيكم الغُلول -أي: في هذه القبيلة التي أنت منها- فلتبايعني قبيلتك، فبايعته قبيلته، قال: فلصقت يد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغُلول، فأخرجوا له رأس بقرةٍ من ذهب، فوضعوه في المال، فأقبلت النار فأكَلَتْه»(٢١٢).

إن هذا الكون بما فيه ليس حزمة حطبٍ يابس منزوعة من الحياة، بل فيه ما فيه من إدراك العابد ومشاعر المؤمن المنيب!

* * * * *

٤٠

عبودية القلم والعرش

للقلم والعرش عبودية خاصة كسائر المخلوقات؛ أما القلم فجاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إن أول ما خلق اللَّه القلم، قال له: اكتب، قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتبْ مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»[٢١٣]..

فللقلم كلامه الذي ينبع من إدراكه بعبوديته لربه، وطاعته له سبحانه وبحمده!

وأما العرش فشأن آخر عظيم جليلٌ يدع الروح في محراب الإخبات والخشوع للَّه تبارك وتعالى!

وينثر فيه نفحات شوقٍ وأنوار محبة علوية سماوية لا شوب فيها!

وانظر قوله ﷺ: «اهتز عرش الرحمن عز وجل لموت سعد بن معاذ»[٢١٤]، رضي الله عنه.

فهذا عرشٌ محبٌّ! يوالي المؤمنين المحبوبين، ومنهم

هذا العبد الصالح، ويهتز لموت الواحد منهم شوقا وفرحا وسرورًا بقدوم روحه إلى الملأ الأعلى!

ولربما كان اهتزازه حزنًا على موته، واللَّه تعالى أعلم.

وهذه النصوص من القرآن والسنة تعكس التوافق والانسجام بين عناصر هذا الوجود كله، وهذه الكائنات ليست عدوة لنا، وليس هناك شيء اسمه صراع مع الطبيعة، بل كلها جنود للَّه مطيعة منقادة، ونحن مطالبون أن ننقاد للَّه سبحانه وتعالى مع هذه الكائنات طوعًا واختيارًا، وألا ندعها تسبقنا إلى هذه القضية، وهي قضية التوحيد، وعبادة اللَّه سبحانه وتعالى، والخضوع له عز وجل، وتسبيحه، وتقديسه، وتنزيهه[٢١٥].

* * * * *

٤١

مشهد ختام ما أروعه!!

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٩].

لقد حدثنا ربنا سبحانه عن ختام الحياة ودخول أهل الجنةِ الجنةَ، وأهلِ النارِ النارَ، والكون مسجد خاشع مفعمٌ بالتسبيح والتحميد للّه رب العالمين!

والحمد هنا جاء مسندًا إلى الفعل المبني لما لم يُسم فاعله! إشارةً إلى طوفان الحمد يغمر الكون كله..بعد ضجيج الظلم وصخب الكفر وعتمة المعاصي وظلمة الآثام!

تشرق الأرض من جديد وتتفتح زهرةً بيضاء تعبق بعطر الحمد! والحمد ثناء وحبٌّ معا، ولا يكون حامدًا من لا يكون محبًّا!

هنا آن للنفوس التي صبرت فكابدت وتعلقت بأهداب الخير وآمنت بالغيب، وخاضت في دروب الألم

ورابطت على ميثاق العهد بالعبودية حبا وقربا، وسعيا وشوقا، وخوفًا ورجاء!

آن لتلك القلوب التي ارتجفت بمشاعر الشوق أن تأوي إلى ربها!

آن لتلك الأرواح التي اعتصمت بالطهر وآثرت العفة والسمو أن تسكن!

آن لمن أوذي فصبر أن يسكن!

آن لمن عبد واجتهد أن يسكن!

الكل في زجلٍ حامدٍ، وتسبيحٍ مجيدٍ، وهناءة لا مِثل لها! والملائكة من حول العرش تحفه، وهي لا تفتر عن التسبيح! والحمد ينبعث من الكل لرب الكل وإله الكل الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد!

وأهل الجنة هنالك في الظلال يحمدونه حمدًا خاصًا! فقد أوجدهم من العدم، ووصلهم بالنعم، وغفر وستر، وأجاب وأقات، وعافى ورحم، وتقبل منهم العمل على قلته، وغفر ما فيه من علل ونقص، بكرمه وفضله، ورحمته وبِرّه، فرزقهم ثواب الأبد وجنة الخلد

قال رب العالمين: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال: «أي: نطق الكون أجمعه ناطقُهُ وبهيمه للّه رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل، بل أطلقه، فدلَّ على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد»[٢١٦].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

في الختام

إن دينا يجعل للإنسان مثل هذه الآفاق من المشاعر العلوية، وهذا الإدراك الشفيف بالكون من حوله، للحصى والشجر والطير والسماء والأرض والنجوم والكواكب والطعام والشراب حتى الظل!

هذا الإنسان الذي رُبِّي في هذا المحضن الفذ، وخوطب بمثل هذه الكواشف عن مشاعر سارية في ذرات الكون، لا يكون إلا إنسانًا فريدًا لا يسكن إلى ظلم، ولا يكون منه الأذى للحجر أو الشجر أو الطير، فكيف بالبشر؟!

إن دينا يحرم على أصحابه مس فرخ طائر صغير، أو حرق نملة، أو أذى قطة، لا يكون من أتباعه بحق إلا الهدى والرحمة، والعدل والحكمة، وما سوى ذلك فذنبٌ يُتاب منه، ومعصيةٌ يستغفر منها..

هذا دين لا يحكم بالسيف، ولا يتسلط بالقهر، بل يكون سيفه عادلا محكومًا، مقيدًا بميثاق العبودية والرحمة الربانية.. ولما قال سيدٌ من الصحابة وهو سعد

ابن عبادة رضي الله عنه يوم فتح مكة: اليوم يوم الملحمة! اليوم تُستباح الحرمة! اليوم تذل قريش!

قال النبي صلى الله عليه وسلم: اليوم يوم المرحمة! اليوم يعز اللَّه قريشًا..

وهو موطن فخرٍ وإذلالٍ كما يعتقد كثير من الناس! ولكن من ينتمي إلى هذا الدين متقلب بين الرحمة والفضل، والقسط والعدل، والظلم فيه مُحَرَّمٌ من كل أحد مع كل أحد في كل وقت!

وأخيرًا

فقد دار القلم دورة النجم في فلكه، يسبح بعيدًا بقلوبنا عن غبار المادية وألواثها؛ لمعاينة معالم محاريبَ تغَصُّ بعبادها ونساكها من عوالم شتى غير البشر في هذا الكون الفسيح، يشهدون للَّه سبحانه وبحمده بالوحدانية، ويتعبدونه بالذل والحب والخوف والإشفاق! وشأن البصير الصادق أن يجد لقلبه محلاً في هذا الفلك الرحب طاعةً للَّه تعالى وإقبالاً عليه، وطمعًا في رحمته، وخوفًا من عذابه، وتجديدًا لميثاق العبودية بالتوبة النصوح، والخفقات الساجدة في ظلال إياك نعبد وإياك نستعين.

والحمد للَّه رب العالمين، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

الهوامش

(١) متفق عليه.

(٢) انظر تفسير ابن كثير.

(٣) رواه أبو الشيخ في العظمة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٧٥).

(٤) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١/ ٣٠٣) والإمام احمد في الزهد بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٦٨) وفي السلسلة الصحيحة (٦٨).

(٦) سميته «بالصادق» لأن من الخيال ما يكون سرابًا لاستحالته أو لعدم معقوليته.

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٥) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني (٦٨).

(٨) أخرجه البخاري (٥٠٥) ومسلم (٦٦٧).

(٩) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٦٤) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٤١٨).

(١٠) أخرجه مسلم (٢٥٨٦).

(١١) أخرجه البخاري (٣٢٦١).

(١٢) للدكتور سلمان العودة مقالات متميزة في هذا الموضوع.

(١٣) أضواء البيان (٦/ ٢٥٨).

(١٤) روح البيان (١/ ١٦٥).

(١٥) تفسير القرطبي (١/ ٤٦٥).

(١٦) قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح (٦/ ٩٧).

(١٧) أخرجه ابن ماجه (١٠٨٤)، وحسنه الألباني.

(١٨) أخرجه البخاري (٢٧٣٢)، ومسلم (١٣٦٥).

(١٩) أخرجه البخاري (٣٤٧٢).

(٢٠) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦٧).

(٢١) انظر اللسان: حكل.

(٢٢) https//:www.youtube.com/watch?v=dwsgh0dOTeQfeature=fvsre1

(٢٣) http//:www.youtube.com/watch?v2=obiZbXCL95

(٢٤) http//:www.youtube.com/watch?v=s5t-FzoUZRY

(٢٥) https//:www.youtube.com/watch?v5=u-vn9gAa85

https://www.youtube.com/watch?v=h662g1ZyKgk

https//:www.youtube.com/watch?v=ogG5UjnQM3c

https//:www.youtube.com/watch?v=YYtOZ2f7LEg

(٢٦) https//:www.youtube.com/watch?v=n9YM1DulrXM

https//:www.youtube.com/watch?v=7liZdySa-IU

https//:www.youtube.com/watch?v=CYtjN8m-PyE

(٢٧) https//:www.youtube.com/watch?v=pqvjjEuMkcA

https//:www.youtube.com/watch?v=-Trk1a1ruyg

(٢٨) انظر مقالاً بعنوان (هل الإنسان هو العاقل الوحيد في الكون)، دكتور دسوقي عبد الحليم، النص متاح على الرابط التالي:

http//:quran-m.com/quran/printarticles/2645

(٢٩) المصدر: مقال بعنوان (الحيوانات تميز الصواب من الخطأ) نقلاً عن موقع «الجزيرة نت»، النص متاح عبر الرابط التالي:

www.aljazeera.net/home/print/400,dff.../b2883a94-7a85-4a43-9579-478881e2edf.

(٣٠) في ظلال القرآن (٥/ ١٨٨).

(٣١) تخُدُّ الأرض: أي: تشققها أخدودًا.

(٣٢) أخرجه ابن حبان (٦٥٠٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٤٨): أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٣٣) تفسير الطبري (١٨/ ٢٥٨).

(٣٤) نقلاً من موقع الجزيرة، مقال بعنوان: ما حجم الكون؟ وما مدى صغرنا فيه؟

(٣٥) الحلقة: هي الدائرة ويقصد بها حلقة الخاتم الذي يُلبَس في الإصبع.

(٣٦) الفلاة: هي الصحراء الكبيرة والواسعة المترامية الأطراف.

(٣٧) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦، رقم ٣٦١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦) وأخرجه أبو الشيخ في كتاب العظمة (ح١٤١)، وصححه الألباني في تَخْرِيجِ الطَّحَاوِيَّة (ص: ٣١٢) وفي السلسلة الصحيحة (١٠٩).

(٣٨) القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع، انظر المفردات للراغب الأصفهاني (ص ٦٨٤).

(٣٩) متفق عليه. أخرجه البخاري (٣٠٢٧)، ومسلم (١٥٩) واللفظ لمسلم.

(٤٠) سواء قلنا: إن المراد بـ«النجم» هو الذي في السماء، أو قلنا: إنه

النبات الذي لا يستوي على سوقه، فسواء كان هذا أو ذاك؛ فإن مدى الإشارة في النص واحد، ينتهي إلى حقيقة اتجاه هذا الكون وارتباطه ارتباط عبودية وعبادة بالله -سبحانه وتعالى-.

(٤١) فلو شاء الله لما جعل للأجسام ظلالاً كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، وذلك إما بسكون الأرض ودوام ضياء الشمس عليها، أو بعدم طلوع الشمس ودوام ظل الأرض عليها.

(٤٢) انظر: جامع رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، (١/ ٢٧)، تحقيق د. محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء - الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٤٣) انظر: جامع رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، (١/ ٢٨)، تحقيق د. محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء - الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٤٤) تفسير الشعراوي (ص٢٥٩٥) عند تفسيره للآية رقم ١٨ من سورة الحج.

(٤٥) تفسير القرطبي (١٢/ ٢٨٧).

(٤٦) مفاتيح الغيب للرازي (٢٠/ ٢١٦).

(٤٧) الأسطوانة: السارية والعمود.

(٤٨) انظر هذه الآثار وغيرها كتاب العظمة لأبي الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، (٥/ ١٧٣٤)، الناشر: دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

(٤٩) أضواء البيان (٨/ ٥).

(٥٠) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١١١) والطبراني فى الشاميين (٩٦٠) ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٤٨)، وحسنه الألباني

في صحيح الجامع (٥٥٩٩).

(٥١) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (٥/ ١٧١٥).

(٥٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٣٧٢)، والدارمي (١٨) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم ١٧١٨)، وفي صحيح الجامع (برقم ٢٤٠٥). والحائط يعني البستان.

(٥٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١٨٠٩)، وقال الأرناءوط: رجاله ثقات رجال الصحيح... ورواه الترمذي (٢١٨١) والحاكم (٤/ ٤٦٧ - ٤٦٨) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في الدلائل (٦/ ٤١ - ٤٢) وقال هذا إسناد صحيح. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٩١) وقال: أخرجه أحمد والبزار بنحوه باختصار ورجال أحد إسنادي أحمد رجال الصحيح.

(٥٤) أخرجه أبو داود (٢٥٤٩)، وصححه الألباني. وتدئبه يعني تتعبه.

(٥٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٥٩٩)، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وصححه الذهبي.

(٥٦) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢٠٩)، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند من دلائل النبوة ص ١١٨.

(٥٧) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٥٠)، وحسنه شعيب الأرناءوط.

(٥٨) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٣٣٨).

(٥٩) تفسير الطبري (٢١/ ٤٣٩).

(٦٠) انظر التحرير والتنوير (٢٨/ ١٠٤).

(٦١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٢٦).

(٦٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٠٦)، المؤلف: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، الناشر: دار المعرفة - بيروت،

١٣٩١هـ.

(٦٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني.

(٦٤) فيض القدير (٤/ ٤٣٢) باختصار يسير.

(٦٥) أخرجه البخاري (٥٨٤).

(٦٦) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩٣٧) وقال شعيب الأرناءوط: صحيح، وهذا إسناد جيد.

(٦٧) أخرجه أحمد في مسنده (٧٦٠٠) وقال شعيب الأرناءوط: صحيح بطرقه وشواهده.

(٦٨) أخرجه أبو داود (٥١٥)، وصححه الألباني.

(٦٩) أخرجه الترمذي (٨٢٨)، وصححه الألباني.

(٧٠) أخرجه أبو داود (١٥٠١)، وحسنه الألباني.

(٧١) أخرجه الترمذي (٣٤٨٦)، وصححه الألباني.

(٧٢) أخرجه مسلم(٢٩٢٢).

(٧٣) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٥٣٨).

(٧٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢/ ٢١٦).

(٧٥) أخرجه أبو داود (١٠٤٦)، وحسنه الألباني.

(٧٦) أخرجه مسلم (٢٥٨٢).

(٧٧) أخرجه ابن ماجه (١٠٨٤)، وحسنه الألباني. وقد تقدم.

(٧٨) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ٤٣٧).

(٧٩) نور اللمعة في خصائص الجمعة (ص: ٦٥).

(٨٠) نور اللمعة في خصائص الجمعة (ص: ٦٥).

(٨١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٣٣٣)، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (رقم ١٧١٨)، و«صحيح الجامع» (برقم ٢٤٠٥). وقد مر قبلُ.

(٨٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٠٩٧). والخبب نوع منى أنواع السير.
(٨٣) بجرانه الجران: باطن العنق، والمعنى: أنه قد قر قراره واستقام، كما أن البعير إذا برك واستراح مد جرانه على الأرض.
(٨٤) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٧٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٧٠).
(٨٥) يقال: جرجر الفرس أو البعير: إذا حرَّك فمه باللجام.
(٨٦) بجرانه الجران: باطن العنق، والمعنى: أنه قد قر قراره واستقام، كما أن البعير إذا برك واستراح مد جرانه على الأرض.
(٨٧) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٧٣)، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٧٠).
(٨٨) يعني: يستقون ويحملون عليه الماء.
(٨٩) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٥٨)، قال الألباني: صحيح لغيره. انظر السلسلة الصحيحة (١٩٣٦).
(٩٠) أخرجه البخاري (٣٢٨٤).
(٩١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٠٧٥)، وقال الأرناءوط: رجاله ثقات رجال الشيخين.
(٩٢) أخرجه أبو داود (٥١٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (ح رقم ٧١٩١).
(٩٣) أخرجه أحمد (١٧٠٧٥)، والطبراني (٥٢٠٨) وأبو الشيخ في العظمة (١٢٥٧٨٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٥١٧٠).
(٩٤) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٩٥٢)، الحافظ زين الدين عبد الرءوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي - الرياض - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٩٥) أخرجه مسلم (٢٧٢٩).
(٩٦) أخرجه البخاري (٣٢٨٤).
(٩٧) أخرجه أحمد في مسنده (١١٨٠٩)، وقال الأرناءوط: رجاله ثقات رجال الصحيح... ورواه الترمذي (٢١٨١) والحاكم (٤/ ٤٦٧ - ٤٦٨) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في الدلائل (٦/ ٤١ - ٤٢) وقال هذا إسناد صحيح. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٩١) وقال: أخرجه أحمد والبزار بنحوه باختصار ورجال أحد إسنادي أحمد رجال الصحيح.
(٩٨) متفق عليه. أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣١٤١).
(٩٩) طرح التثريب شرح التقريب لأبي الفضل زين الدين العراقي (٧/ ١٩٢).
(١٠٠) «فتح الباري» (٦/ ٣٥٩).
(١٠١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٤٣).
(١٠٢) الصلاة لغة: الدعاء.
(١٠٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني.
(١٠٤) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٥٩).
(١٠٥) أخرجه النسائي (٣٥٧٩)، وصححه الألباني.
(١٠٦) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢)، قال شعيب الأرناءوط: إسناد هذا الأثر صحيح.
(١٠٧) أخرجه أبو داود (٢٥٤٨)، وصححه الألباني.
(١٠٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٨٨).
(١٠٩) انظر تفسير السعدي (١/ ٦٧٦).
(١١٠) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٤٠) والخطيب (١١/ ٩٧)،

قال المناوي (٢/ ٣٦٦): فيه الحسين بن علوان أورده الذهبي في الضعفاء وقال متهم متروك.

(١١١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) وصححه الألباني.

(١١٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٩) وصححه الألباني.

(١١٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني.

(١١٤) ولكن مما يؤسف أننا لا نجد هذا التقدير من كثير من البشر تجاه العالم أو معلم الناس الخير، ولكن يكفي أن نؤمن بأن الحيتان والنمل أكثر تقديرًا للعالم من كثير من البشر.

(١١٥) سيأتي بعد قليل الحديث عن استغفارها كذلك للمؤذنين.

(١١٦) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢١١).

(١١٧) أخرجه الترمذي (٥٧٩) وحسنه الألباني.

(١١٨) أخرجه ابن ماجه (٧٢٣)، وصححه الألباني.

(١١٩) أخرجه الترمذي (٨٢٨) وصححه الألباني.

(١٢٠) أخرجه البخاري (٦١٤٧) ومسلم (٩٥٠).

(١٢١) سنن الدارمي، المقدمة (١/ ٢٢).

(١٢٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٧٣)، وصححه الألباني بشواهده، انظر مشكاة المصابيح (٥٩٢٢).

(١٢٣) «مشكاة المصابيح» (ح ٥٩١٩).

(١٢٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٨) وصححه الألباني.

(١٢٥) العذق: هو الفرع أو الساق من الشجرة.

(١٢٦) أخرجه الترمذي (٣٦٢٨) وصححه الألباني.

(١٢٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٤/ ٤٥٣)، وصححه شعيب الأرناءوط.

(١٢٨) أخرجه مسلم (٣٠١٢). المخشوش يعني: موضوع في أنفه

الخشاش وهو خشبة تكون في أنف البعير يُقاد منها. يصانعه: يعني يطيعه ويسايره.

(١٢٩) أخرجه ابن ماجه (٣٣٩)، وصححه الألباني.

(١٣٠) أخرجه البخاري (٣٣٩١).

(١٣١) أخرجه الدارمي(١٦) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٩٢٥).

(١٣٢) أخرجه الترمذي (٣٦٢٨) وصححه الألباني.

(١٣٣) أخرجه البخاري (٣٦٤٦) ومسلم (٤٥٠).

(١٣٤) أخرجه الترمذي (٥٧٩)، وحسنه الألباني.

(١٣٥) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢١١).

(١٣٦) ذكر ذلك الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في استنشاق نسيم الأنس.

(١٣٧) «أضواء البيان» (٨/ ١٠١).

(١٣٨) أخرجه البخاري (٤٢١٢).

(١٣٩) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ١٣٨).

(١٤٠) أخرجه ابن ماجه (١٠٨٤)، وحسنه الألباني.

(١٤١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٨٥٤٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢١): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(١٤٢) أخرجه الترمذي (٣٦٢٦)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٢٦٧٠).

(١٤٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٢)، ومسلم (١٣٦٥).

(١٤٤) أخرجه البخاري (٣٤٧٢).

(١٤٥) إرشاد الساري شرح صحيح البخاري (٦/ ٩٧) للقسطلاني.

(١٤٦) أخرجه الترمذي (٣٧٠٣)، وحسنه الألباني.

(١٤٧) وحراء وثبير: جبلان متقابلان معروفان بمكة.

(١٤٨) أخرجه مسلم (٢٤١٧).

(١٤٩) الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال (١/ ٢٣١).

(١٥٠) فتح الباري (٧/ ٣٨).

(١٥١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٢١).

(١٥٢) الدر المنثور (١/ ٩٧).

(١٥٣) تفسير الطبري (٢/ ٢٣٩).

(١٥٤) أخرجه ابن حبان (٧٣٢٧)، قال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح.

(١٥٥) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

(١٥٦) أخرجه البخاري (٥٨٤).

(١٥٧) أخرجه ابن ماجه (٢٩٤٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٢٢).

(١٥٨) أخرجه ابن أبي عاصم في كتابه السنة (١١٤٦)، وصححه الألباني في ظلال الجنة تخريج السنة، رقم (١١٤٦).

(١٥٩) أخرجه البزار (٧٥٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠٣٥).

(١٦٠) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦١٤٧) ومسلم (٩٥٠).

(١٦١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٢٥٤).

(١٦٢) انظر الجواب الكافي (ص: ٣٨).

(١٦٣) «التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن» (٣٤٩).

(١٦٤) أخرجه البخاري (٣٣٨٦).

(١٦٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٤٩٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي.

(١٦٦) «فتح الباري» (٦/ ٥٩٢).
(١٦٧) فتح الباري (٦/ ٥٩٢).
(١٦٨) كتاب العظمة (٥/ ١٧٢٦).
(١٦٩) أخرجه مسلم (٢٩٦٩).
(١٧٠) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٩).
(١٧١) أخرجه مسلم (٢٩٦٩).
(١٧٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٨).
(١٧٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٦٤٥) وصححه ووافقه الذهبي.
(١٧٤) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧) وحسنه الألباني.
(١٧٥) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وصححه الألباني.
(١٧٦) أخرجه أحمد (٩١٢٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٧٤).
(١٧٧) أخرجه مسلم (٧٢٠).
(١٧٨) أخرجه مسلم (٢٩٦٨).
(١٧٩) أخرجه الترمذي (٢١١٨) وصححه الألباني.
(١٨٠) أخرجه مسلم (٤٩١).
(١٨١) أخرجه مسلم (٤٧٠).
(١٨٢) صفة صلاة النبي ﷺ (ص١٥١).
(١٨٣) أخرجه أبو داود (٤٥١٢) وقال الألباني: حسن صحيح.
(١٨٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٢٥٥).
(١٨٥) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٩٣).
(١٨٦) تفسير البغوي (١/ ١٦٥).
(١٨٧) تفسير الطبري (١٦/ ٩٨).
(١٨٨) أخرجه ابن ماجه (١٠٨٤)، وحسنه الألباني.

(١٨٩) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٥٤).

(١٩٠) الدرر المنثور للسيوطي (٧/ ٤١٣).

(١٩١) تفسير عبدالرزاق (٣/ ١٨٥).

(١٩٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٣٦).

(١٩٣) شرح الصدور في أحوال الموتى وأهل القبور (ص ١٠٥).

(١٩٤) المصدر السابق.

(١٩٥) المصدر السابق.

(١٩٦) المصدر السابق.

(١٩٧) تفسير القرطبي (١٦/ ١٤٢) باختصار.

(١٩٨) أخرجه مسلم (١٥٩).

(١٩٩) جامع الرسائل، مرجع سابق، (١/ ٣٧).

(٢٠٠) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٧).

(٢٠١) أخرجه وكيع في كتاب الزهد، رقم (٢٣).

(٢٠٢) انظر: تفسير أبي السعود (٥/ ٦٦٠)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ١٣١)، وروح المعاني للألوسي (١٧/ ١٠٠).

(٢٠٣) انظر: أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٧/ ٧٣٧).

(٢٠٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٧٢٣) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١/ ٢٥٢).

(٢٠٥) أخرجه ابن ماجه (١٠٨٤)، وحسنه الألباني.

(٢٠٦) أخرجه مسلم (٢٧٨٢).

(٢٠٧) أخرجه الترمذي (١٩٧٨) وصححه الألباني.

(٢٠٨) أخرجه مسلم (٢٩٨٤).

(٢٠٩) أخرجه البخاري (٤٥٦٩) ومسلم (٢٨٤٦).

(٢١٠) أخرجه البخاري (٥١٢) ومسلم (٦١٥).

(٢١١) أخرجه الترمذي (٢٥٧٤) وصححه الألباني.

(٢١٢) أخرجه مسلم (١٧٤٧).

(٢١٣) أخرجه أبو داود (٤٧٠٢) والترمذي (٢١٥٥) وصححه الألباني.

(٢١٤) أخرجه البخاري (٣٥٩٢) ومسلم (٢٤٦٦).

(٢١٥) بتصرف واختصار من محاضرة بعنوان (عبودية الكائنات) للشيخ الدكتور محمد إسماعيل المقدم، النص متاح على هذا الرابط:

http//:audio.islamweb.net/audio/index.php?page = FullContentaudioid = 162061

(٢١٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٤).

الفهرس